طالب صالح يدعو لك

في التربية والتعليم

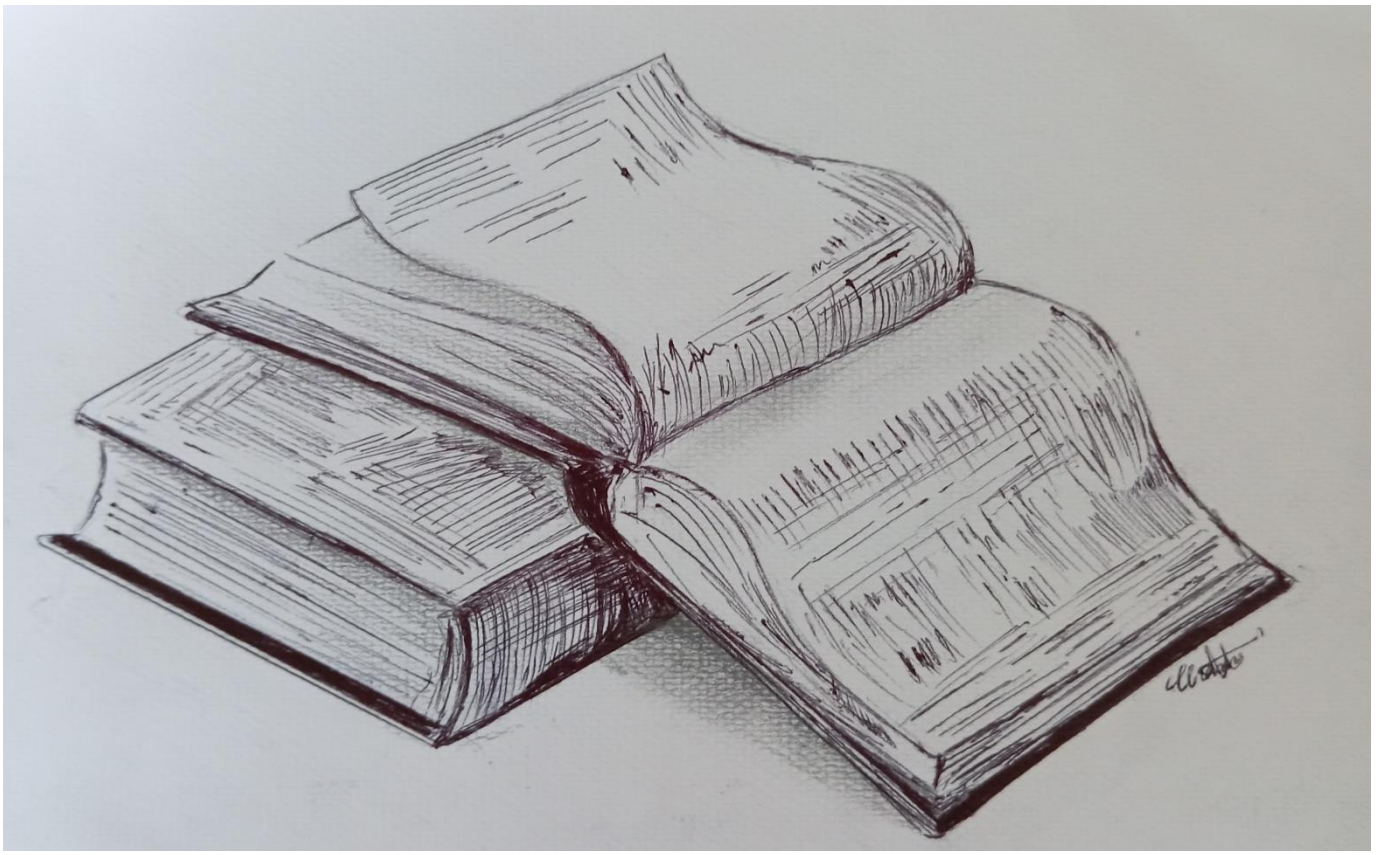

عماد عشا

مركز رواء المعرفة
للدراسات والأبحاث والترجمة

طالب صالح يدعو لك

عماد عشا

طالب صالح يدعو لك

المؤلف : عماد عشا

- **الطبعة الأولى : 2024**

رقم الإيداع القانوني : 2024MO0358

ISBN : 978-9920-31-064-2

- **منشورات مركز رواء المعرفة للدراسات والأبحاث والترجمة**

إهداء :

إلى كل من علمني حرفا..

قف للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

"أمير الشعراء"

مـقـدمــة :

قال تعالى في سورة النحل (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله غفور رحيم)، ومن هذه النعم التي أسبغها الله عز وجل على عباده نعمة التعليم، هذه النعمة التي هي فلاحة الأذهان وبها تتقدم الأوطان في كل الأمكنة والأزمان، وقد كانت هذه النعمة قديما مقصورة على فئة مخصوصة من الناس ممن أوتوا حظا من الوجاهة والثراء، أما اليوم فقد انتشر التعليم بفضل الله، وشرعت أبواب المدارس أمام ضعيف الناس وقويهم، وفقيرهم وغنيهم، ووعى الناس أهميته فدفعوا بأبنائهم لحجرات الدرس وألحوا عليهم في الدرس والتحصيل، وهذه الناشئة التي تلج المدارس لتكتسب المعارف والقيم والأدب، أمرهم موكول للمعلمين الذين حملوا أمانة عظيمة تأبى حتى الجبال حملها، لأنهم مستأمنون على الأفئدة الرطبة والعقول البكر، وفي هذا تشريف عظيم وتكليف خطير ..

ويفترض في المعلم أن يستشعر فضل الله عليه ومنته، فالله عز وجل اختاره لتعليم الناس، وليس هذا بالأمر الهين، وإنما أمانة عظيمة صاحبها محاسَب، وإن كان الله عز وجل بوأه أفضل المراتب، والمراتب هنا ليس ما يتقاضاه المعلم على عمله من أجر مادي، إنما ما يتركه من أثر طيب في أفئدة متعلميه، وما يغنمه أيضا من ثواب في دنياه وآخرته، لأنه مصلح يقوم المعوج، ويشد عضد المقوم حتى يشتد، فتفانيه وإخلاصه في عمله فيه صلاح، وفيه نفع عظيم يعم المجتمع لأنه يسهم في تكوين مواطن صالح منسجم مع ذاته ومع الآخرين..

أما عن هذا الكتيب، فإنه ليس بالكتاب العلمي ولا يمت للبحث الأكاديمي بصلة من بعيد أو قريب، إنما هي خواطر ألحت علينا إلحاحا شديدا، أو قل هي أفكار وتأملات لم نر بدا من أن نُسوِد بها هذه الصفحات، ولعل قارئ هذا الكتيب سيلاحظ أن مواضيعه مختلفة الألوان لا يجمع بينها رابط غير أنها تتناول قضايا تتصل بالتربية والتعليم، وما

أكثر القضايا التي ترتبط بهذا الميدان قديما وحديثا، بل وما أكثر ما سيستجد غدا، إذ ميدان التربية دينامي لا يعرف السكون..

وختاما لا يسعني إلا القول إن ما في هذا الكتيب من تقصير فهو مني ومن الشيطان، وما كان من توفيق فمن الله.

"وحكمتَ على المجتهدين بتفريط المقصرين"

"وحكمتَ على المجتهدين بتفريط المقصرين "هذا مما رد به الجاحظ في رسالته على ذلك الشخص الذي أساء للمعلمين من خلال الحكم على أدائهم عامة، انطلاقا من تقصير فئة قليلة.

ومما يؤسف له أن فريقا من الناس يتعسفون ويطلقون الأحكام التعميمية على الأساتذة دون أن ينظروا بعين العدل، ومما تلهج به ألسنة هؤلاء أن الأساتذة ماديون، يتهافتون على الساعات الإضافية ويجبرون تلامذتهم عليها..، وما شابه ذلك من الأقوال التي في تعميمها كثير من الظلم والإجحاف، إننا لا ننكر أن هناك من الأساتذة من يقصر في عمله، لكن هؤلاء يبقون قلة وشذوذا عن القاعدة، والشاذ لا يقاس عليه، ومثل تلك الأحكام هي أحكام قيمة تبخس عمل السواد الأعظم من المدرسين.

لقد ابتلينا بأحكام القيمة في كل شيء وترددها ألسنتنا صباح مساء، فلو سألت رجلا عن النساء مثلا لقال :

إنهن وإن لانت ملامسهن فهن جميعا أفاع عند التقلب في أنيابهن العطب ، وإن سألت امرأة عن الرجال لقالت دون روية :

إنهم شر الخلق وكلما أتيحت لهم فرصة خانوا وغدروا..

وكل هذه الأقوال مردودة لأن حكما مثل هذا يستوجب أن يكون ذلك الرجل قد عاشر كل النساء، وأن تكون تلك المرأة عاشرت كل الرجال ليصدرا معا مثل هذه الأحكام، والذي يطلق حكما قاسيا على كل المعلمين من خلال تجربته مع معلم واحد شبيه بذلك الرجل أو تلك المرأة، فهو لم يتعامل مع كل المعلمين، ولم يتبين التضحيات الجسام لبعضهم والتي لا يبتغون بها غير وجه الله، فمنهم من ينجز الساعات الإضافية لا ينتظر جزاء ولا شكورا من إنسان، ومنهم من يساعد تلامذته المعوزين سرا لا يعلم

بذلك إلا الله، والسواد الأعظم يقتنون الأقلام وينسخون الفروض من مالهم الخاص حبا في عملهم وتلامذتهم، ويسخرون كل جهودهم لتعليم أبناء جلدتهم، ومنهم من يلعب كل الأدوار مع المتعلمين، فيكونون أطباء نفسانيين حينا، ومساعدين اجتماعيين حينا آخر..

أفنغض الطرف عن كل المجتهدين ونحاكمهم بتفريط المقصرين؟

سي نجاح

كنا نسمع عنه أعجب الحكايات من تلامذته، فأحبه نفر كبير منا دون أن يلج قاعته أو أن يحضر درسا من دروسه، بعض الناس يجعل الله لهم قبولا في أفئدة الناس، فيحبهم الصغير والكبير دون أن تكون لهم في ذلك مآرب، كان سي نجاح رجلا ضخم الجسد، أبيض البشرة، له صلعة تبرق، زاده الله بسطة في الجسم، وأسبغ عليه هيبة ووقارا، لم نكن آنئذ نعرف شيئا عن طريقة تدريسه، لكن كنا نسمع ممن سبقونا في مسيرة التحصيل عن عطفه الأبوي، وحسه الإنساني المنقطع النظير، كانت الصورة التي رسمها عنه تلامذته مشرقة، تجعلنا تواقين أشد التوق في طي المستويات لنبلغ صفه.

شاع عنه أنه معلم بدون عصى، وما أنذر ما تسمع عن معلم بدون عصى تلك الأيام، ومن عجائب الأمور في حصص هذا المعلم أن الصغار كانوا يتخففون من مشاكساتهم خارج القاعة قبل أن يلجوها، ويتحولون في حصصه لتلاميذ ناضجين أكثر مما تستوجب أعمارهم، لم يكن يحتاج أن يخترق الصفوف ليراقب تلامذته عن كثب، بل كان الجميع يشعر بثقل المسؤولية التي يلقيها هذا المعلم على عاتقهم، فيجتهدون في استحقاقهم الثقة التي يخصهم بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

حفظت ذاكرتنا الطفولية كثيرا من المواقف لذلك المعلم الجميل، لكن أكثرها رسوخا في أذهان الناشئة هي ما كان يقدم عليه بين الفينة والأخرى من حملات تنظيف كلما رأى حاجة لذلك، كان في الساحة حنفية بها خرطوم ماء طويل تسقى به الأشجار، وكثيرا ما كان يخرج بعض أكياس "الشامبو" فينادي على المتسخة رؤوسهم يحممهم، كانت تجربة فريدة بالنسبة لأغلب التلاميذ فقد كنا جميعا كدحا أبناء كدح، لم تعرف رؤوسنا تلك السوائل الناعمة المخصصة لغسل شعر الرأس، فقد تعودنا حينما تحممنا أمهاتنا أنهن يغسلن شعور رؤوسنا بمسحوق غسيل الملابس، وتعودنا أن نفرك حبيبات

المسحوق على شعورنا وفروة الرأس ببعض العنف حتى تنشأ منها رغوة سرعان ما نستعجل التخلص منها لأن ما يتسرب منها للأعين يكون حارقا.

للأطفال تأويلات عجيبة في تفسير بعض ما يعترضهم من مواقف، لست أدري كيف فسر التلاميذ على صغر سنهم وبشكل عفوي سلوك "سي نجاح"، فقد زعموا أن الرجل عقيم لم يرزقه الله ذرية، فكانت تلك علة عطفه الأبوي على التلاميذ، وزعمت طائفة أخرى أنه عازب لم يتزوج، ولم نكن نعرف بالضبط أي فوج من التلاميذ اهتدى إلى هذه التفسيرات هل القدماء أم الجدد، ولا أحد كلف نفسه أن يتأكد من تلك المزاعم، ولا توفرت الأسباب للتبين، لأن "سي نجاح" انتقل دون أن يعرف أحد بذلك تاركا وراءه أثرا طيبا في النفوس.

طالب صالح يدعو لك

حينما كنا طلبة في سلك الماستر بلغ إلى علم الطلبة أن أحد أساتذتهم سيحال على التقاعد فآثروا أن يكرموه، اتفقوا على كل شيء ثم توجهوا عند الأستاذ في آخر الحصة، اقترحوا عليه الفكرة، ابتسم ابتسامة خاطفة ثم استغرق في التفكير، بعد لحظة قال :

- لا أريد تكريما ولن أحملكم مشقته، لكن سأطلب منكم شيئا واحدا، تحفز الطلبة متأهبين لسماع طلبه ثم قال :

- اذكروني بخير.

شعر الطلبة بالإحباط، وأحسوا بخيبة أمل لأن سعيهم لتكريم هذا الأستاذ كان بريئا خالصا لوجه الله تعالى يدفعهم إليه ما يضمرونه له من إيثار وحب، ولم يكن للتزلف نصيب مما عزموا عليه، (اذكروني بخير)، تأملت كثيرا هذه العبارة، أي ذكر يقصده الأستاذ بالضبط؟ فهل هو ذكر محاسنه وتفوقه؟ لكنه لم يكن بحاجة لذلك فالرجل كان جهبيدا في تخصصه، وتفصله أشهر فقط عن مغادرة الجامعة، بعد أن ظفر وحاز احترام الكل أساتذة وطلبة، أيكون قد قصد بالذكر الدعاء؟، أغلب الظن أن هذا كان قصده، فأن يدعو له طلبته بالغيب، هو أسمى تكريم يحصل عليه.

شاء الله أن نلتحق بسلك التعليم، وكثيرا ما وجدت نفسي أستشهد أثناء بناء الدروس مع تلامذتي بكلام أو موقف لأحد أساتذتي مترحما عليه إن كان قد ترجل عن صهوة الحياة، أو داعيا له بطول العمر إن كان ما يزال يمشي على الأرض، فكنت وما أزال أقول لتلامذتي كلما دعا السياق إلى ذلك: أخبرنا أستاذنا فلان رحمة الله عليه، أو حدث مع أستاذنا فلان أطال الله في عمره.. ولا أستثني أحدا من أساتذتي من الذين كان لهم بالغ الأثر في مساري العلمي أو في حياتي عموما، فما أكثر ما يتأثر المتعلم ببعض المعلمين الحاذقين المهرة، ويحذو حذوهم متشبها بهم في حركاتهم وسكناتهم، وقد حدث معي

هذا منذ أول عام وطئت فيه قدماي حجرات الدرس متعلما وأستاذا، طالبا كنت ولا أزال..

جاء في الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ. إذا كان المعلم أبا ثانيا لطلابه يحبهم حبه لأبنائه ويعطف عليهم عطفه على فلذات أكباده، ويحرص على أن يبلغوا العلا زارعا فيهم كل ما بين يديه من قيم حميدة، فإنهم يتخذونه أبا ثانيا يوقرونه توقيرهم لآبائهم، ويقتدون به أحيانا أكثر من اقتدائهم بآبائهم، ولا ريب سيأتي يوم يدعون له في السر والعلن كما يدعون لآبائهم.

قد تموت وليس لك ولد صالح من صلبك يدعو لك، لكن قد يمن عليك الله بطالب صالح ينهض بهذا الدعاء، أو قل طلابا كثرا يدعون لك بعد أن تركت فيهم أثرا طيبا...

الألماني

الأساتذة غالبا ما تضيع أسماءهم الحقيقية على ألسنة تلامذتهم، فكثيرا ما نجدهم يرددون "مول العربية" "مول العلوم" "مول الاجتماعيات" إلى غير ذلك من التخصصات، هذا في أحسن الحالات، وأشق من ذلك أن يتخذ لك التلاميذ لقبا لا تريده لكنه يرتبط بك كل السنوات فلا تُعرف في مجالسهم إلا به، وهذا جانب مثير للعجب عند المتعلمين، لهم قدرة خارقة على نحث الألقاب تضاهي قدرات كبار اللغويين، ويبدعون في ذلك إبداعا يندهش له حتى الأستاذ الذي فصل اللقب على مقاسه..

قليل من الأساتذة من لا يتخذ له تلامذته لقبا عجيبا يستلهمونه من لازمة يكررها في دروسه، أو يشبهونه بشخصية من الشخصيات إن كان بينهما شبه، أو رب زلة لسان أحيانا قد تتحول باتفاق جمهور التلاميذ إلى اسم جديد ينتقل بين الأجيال والمستويات حتى يغيب الاسم الحقيقي للأستاذ ويصبح نسيا منسيا، ولعل الأساتذة الذين كناهم تلامذتهم بألقاب لا يرضونها في انتقالهم راحة وبداية جديدة في انتظار لقب جديد.

خطرت ببالي هذه الأشياء وأنا أسترجع رفقة صديق بعض الطرائف في الثانوي، ذكرنا الألماني (أستاذ مادة الاجتماعيات) واسترجعنا بعض الطرائف معه، لا أحد منا عرف اسمه الحقيقي، كان كافيا أن ينطق كلمة الألماني ليخطر في بالي مباشرة أستاذ الاجتماعيات، لسنا نعرف أصل التسمية ولا متى أطلقت عليه، حتى الذين سبقونا في فصول الدرس عرفوه بالاسم نفسه، لكن كان ثمة بعض الآراء التي كانت تبرر هذه التسمية وإن لم يزعم أحد نسبة هذه الآراء لنفسه، أو كلف نفسه جهد التحري والتبين، تلك آراء وجدنا عليها من سبقونا وأخذناها عنهم، فقد قيل أن سبب التسمية هو أن ملامحه تشبه ملامح الألمانيين، وزعمت جماعة أنه لقب بالألماني لتردده على ألمانيا عطلة كل صيف ، ومنهم من رد الأمر إلى لباسه وتشبهه بالرجال البيض إلى حد كبير،

وبعضهم ذهب بعيدا في التأويل، واعتبر صرامته كصرامة الجنود الألمان لِمَا علق في أذهانهم عن هؤلاء الجنود مما شاهدوه من أفلام ووثائقيات..

استعدت ورفيقي بعض المواقف الراسخة في أذهاننا في حصص الألماني، فقد كان الرجل مولعا بطرح بعض الأسئلة التي يختبر بها فهمنا، وغالبا ما تكون أسئلة لا ترضيه الإجابة المباشرة عنها، بل ينتظر من التلميذ أن يتوسع في الإجابة حاشدا معارفه وتعلماته ومقروءه، وإذا طرح سؤالا وتلقى إجابة يستحسنها فإنه كان يطلب من المتعلم الالتحاق به في المكتب، فيفسح له مكانه ويجلسه على كرسيه، وكثيرا ما كان يفعل هذا مع صاحب كل إجابة يستحسنها، فكان ذلك يشعرنا بفخر كبير، لم يكن مبعث هذا الفخر هو ذلك الكرسي المهترئ والمكتب المتهالك، إنما تلك المكانة الاعتبارية للأستاذ، أن يفسح لك الأستاذ عن مكانه ويجلسك فيه وأنت المقهور الكادح المهمش تهميشا لا يخطر على بال، شيء كان يدعو للاعتزاز، ويحفزك لعلك يوما تقتدي بهذا المعلم الصارم الجميل فتكون مثله أو أكثر..

قصص الإبراشي

بعض المبادرات ظاهرها البساطة وفي باطنها نفع عظيم، ذات يوم اقترح علينا المعلم في السنة الخامسة ابتدائي مشروع قراءة وجعله مبادرة جماعية قائمة على التعاون، اقترح علينا أن نعطي درهما كاملا مقدما، وبما أن القسم يضم أربعين تلميذا تقريبا، فالمجموع المحصل قارب الأربعين درهما، وهذا سيمكننا من شراء عشرين قصة إذا افترضنا أن القصة الواحدة بدرهمين، راق المشروع نفرا كثيرا من المتعلمين وتحمسوا له، أما بعضهم فمسهم بعض الفتور حينما سمعوا بأداء درهم مقدما، وازداد فتورهم حينما سمعوا أن استئجار قصة سيكون بعشرين سنتيما للأسبوع، فعشرين سنتيما لم تكن بالأمر السهل آنئذ، فقد تكون ثروة التلميذ الأسبوعية التي يغنمها من والديه..

أفرز المعلم لجنة من التلاميذ تخيرهم استنادا لمعرفته وخبرته، ووزع المهام عليهم، فقد أوكل مهمة أمين المال لتلميذة كانت تكبرنا حجما وسنا، تحمست للمهمة وسخرت لها كل وقتها وجهدها، ولم يحتج أحد على توكيلها بمهمة أمين المال، فقد بدت قادرة على دفع نزوات الطفولة، وقادرة على أن تمسك يدها عن الأموال التي ستجمعها، والراجح أن المعلم لو أوكل بالمهمة لأحد الصغار الآخرين لخان الأمانة، وأنفق تلك المساهمات في شراء الحلويات أو صرفها في اللهو واللعب دون تقدير لعاقبة أو خوف من حساب، أما مهمة توزيع القصص على من أدى الرسوم الأسبوعية فكانت من نصيب أحد التلاميذ المتفوقين، وكانت المهمة تشريفا له لأنه من أكثر أهل العلم وأقربهم للثقافة والكتاب، واستشعر المسؤولية التي على عاتقه وذلك التشريف، فكان يتفنن في أداء مهمته بزهو وخيلاء فلا يناولك القصة من خزانة القسم إلا بعد أن يلوح بيده لأمينة المال وتبادله التلويح بيدها إشارة إلى أن التلميذ أدى ما في ذمته من سنتيمات، كما كان شديد الحرص صباح أيام الاثنين على استرجاع القصص ممن أتموا الأسبوع، أو الترخيص بتمديد لمن لم يتم القراءة بعد، ولا يكون ذلك إلا بعد أن يعطي اسم المتعلم أو المتعلمة لأمينة المال لتأخذ منه رسوم الأسبوع الثاني.

هل كان أولئك الصغار يقرؤون القصص التي يستأجرونها؟ نعم، كان أغلبهم يفعلون، لكننا لم نعدم فئة كانت تستأجر القصص فقط ليسجل اسمها في جدول القراء حتى يأخذوا نصيبهم من ثناء المعلم. وإن كانوا يفشلون في سرد قصصهم فعلى الأقل لمست أيديهم كتبا غير المقررات، وربما منهم من قرأ الصفحة أو الصفحتين فأعرض عن الباقي، وذلك إنجاز لا يبخس على كل حال، وإن كانوا أيضا لم ينالوا حظا عظيما ومتعة من القراءة كأترابهم، فإنهم لم يزهدوا في نصيبهم من حفلة نهاية السنة التي تم تمويلها بالثروة الصغيرة التي جمعتها وحفظتها أمينة المال.

مرت سنين كثيرة وما نزال لليوم نتذكر تلك القصص الساحرة بلهفة كبيرة، فقد كان لها أعظم الأثر في ماضينا وحاضرنا، فلا ريب أن أغلبنا لم ينس اسم مؤلفها "محمد عطية

الإبراشي" ولا الرسوم الفريدة في واجهات أغلفتها، ولا بد أن كلا منا أثرت فيه قصص أكثر من الأخرى، وحركت في أعماقه الأحاسيس المختلفة من خوف أو شفقة أو تعاطف، أو فرح كما في قصة "الصياد المسكين" أو قصة "نسيان الجميل" أو أمثالهما..

إملاق

ورد في كتاب الحداثة السائلة لعالم الاجتماع "زيغمونت باومان" في الصفحة 146 القول الآتي :

"في مجتمع الإغواء والإغراء الذي يسكنه مدمنو التسوق والفرجة، لا يستطيع الفقراء أن يغضوا الطرف عما حولهم؛ فلا يوجد مكان يمكنهم فيه أن يغضوا الطرف. فكلما زادت الحرية على الشاشة، وجاذبية المغريات التي تغري الناس بعروض التسوق، زاد الإحساس بالواقع البائس الفقير "

إن هذا القول إن كان يصدق على كل الفقراء إلا أن فئة خاصة منهم هي الأشد ضررا، وأقصد هنا بعض المتعلمين الذين تشعر بسخطهم العارم من كل شيء، إنهم فقراء وأبناء فقراء، ولا سبيل أمامهم لغض الطرف أمام الفوارق، هم مكرهون على أن يعقدوا المقارنات بينهم وبين أترابهم ممن هم في بحبوحة من العيش، وكثيرا ما يذهبون بعيدا في هذه المقارنات، وأخطرها ما كان في الهواتف واللباس، وما شابه ذلك مما يتفاخر به المراهقون فيما بينهم..

أحيانا قد تلوم هذا المتعلم على انشغاله بأمور غير التعلم، وعلى شروده في الأوقات التي ينبغي عليه أن يركز مع التحصيل والشرح، لكن غالبا ما لا يتم الانتباه إلى أن هذا المتعلم صدره يتأجج غضبا، والشعور بالنقص يفتك بقلبه وعقله، لعلنا خبرنا مثل هذه الأمور حين كنا تلامذة أيضا، لكن الأمر خطير اليوم، لأن الفوارق كبيرة جدا والهوة في اتساع ، في زمننا لم تكن هناك لوحات إلكترونية أو هواتف، والجمهرة الكبيرة من الناشئة درجوا على ارتداء الملابس المستعملة، وكانت الموضة مقصورة على علية القوم، فلا "مُودة" كل فصل أو عام، بل كثيرا ما ترث ملابس ومحافظ وكتب إخوتك الذين يكبرونك سنا، وقد تورثها أنت أيضا لمن يصغرك إن كان فيها بقية من صمود. ترتدي السروال حتى يبهت أو تتمزق ركبه من شدة اللعب جثوا. أما اليوم فنعيش في مجتمع استهلاكي صارت

فيه النفوس مهووسة بالتبضع بمناسبة أو بغير مناسبة، وتغيرت الطباع وصار التفاخر طبعا راسخا عند أكثر الناس..

لم نعمم ولا ينبغي لنا ذلك، لأن الواقع يظهر أن هناك من المتعلمين الفقراء من وفقوا إلى جعل فقرهم حافزا على أن يكونوا من النجباء، وهؤلاء غالبا ما يكون وسطهم الأسري عاملا مساعدا في هذه القناعة، أما الذين تآمرت عليهم كل الظروف فالسخط وسيلة تعبيرهم، ولا يعرفون أن ذلك السخط ما كان ليغير شيئا إنما يزيدهم ضعفا ورهقا، وحين يكبرون تتغير تلك الأفكار أو تزداد رسوخا حسب كثير من الظروف، ونحب هنا أن نسوق مقطعا من رواية " المستنقع" للروائي السوري حنا مينه الملقب بمؤرخ الفقراء والمضطهدين والذي كان يكرر دوماً "إن علم الاجتماع مكتوب على ظهري"، في إشارة منه الى كثرة التجارب الحياتية القاسية التي مر بها.

يقول "حنا مينه":

" كان اسم الوالد مسجَّلاً في قائمة الفقراء الذين يوزَّع عليهم الطحين والسمن والسكر في عيدَي الميلاد والفصح. ولسوء الحظ، كان التوزيع يجري في بهو المدرسة، ولكم عانيت من مجيء أمي إلى ذلك البهو والوقوف مع النساء الفقيرات في صف طويل، بانتظار دورها لتناول نصف كيلو من الطحين وربع كيلو من السكر و 200غرام من السمن لكلّ فرد منا حسبما هو مسجَّل في دفتر العائلة.

أيام توزيع المعونة تلك، كانت من أشدّ الأيام قسوة على نفسي، وبسببها سأهجر المدرسة حين أبلغ الصف الرابع، أما وأنا في الصف الأوَّل والثاني والثالث، فقد عرفت ثلاثة أعوام كان كعك أعيادها مرّ المذاق في فمي، لأنَّه من طحين وسكر وسمن الجمعيَّة الخيريَّة الذي يوزّع في بهو المدرسة. وقد تترك أمي مكانها في طابور التوزيع، وتذهب إلى المعلمة لتعرّفها بنفسها. لتقول لها إنَّها أمي، وهي فخورة بذلك، مزهوَّة أن أكون ابنها، بينما أنا أعاني إحساساً بالخزي لفعلتها هذه، ولأنَّها جعلت المعلمة تعرف أنَّها أمّي، وأنَّها جاءت لتتلقى معونة الجمعيَّة الخيريَّة. ولسوف أفكر بذلك عندما أكبر، وأستشعر أنني

كنتُ نذلاً صغيراً. كنت جرواً من حيّ " الصاز" لا يدري من أين تلوث بتلك العادة الذميمة، عادة الخجل من الفقر، ولسوف يقول لي أحد العمال يوماً: الفقر ليس عاراً، بل خجلك من كونك فقيراً هو العار، تعلم أن ترفع رأسك أمام الأغنياء، وأن تقول لهم أنَّك أفضل منهم، وستدخل هذه الكلمات إلى قلبي وعقلي، وتستقر فيهما، وأقلع منذ ذلك الحين عن الخجل بسبب الفقر، وأحتضن أمّي يوماً وأقبّلها وهي لا تدري لماذا. أقبّلها تكفيراً عن خطيئتي عندما كانت تفخر بي وأنكر أمومتها قبل صياح الديك".

الإعداد القبلي

اعتاد الأساتذة نهاية كل درس أن يكلفوا متعلميهم بتحضير الدرس الموالي، منهم المؤمن بهذا التحضير يصر عليه كل الإصرار، حريص كل الحرص على مراقبة دفاتر الإعداد، ومنهم دون ذلك ممن يفحص الدفاتر حينا ويغض الطرف عن ذلك حينا آخر، وفئة ثالثة لا تلقي بالا لهذا الإعداد ولا تلزم به المتعلمين. عندما كنا تلامذة كانت تختلف أحوالنا باختلاف الأساتذة ودرجة صرامتهم، فأما عند الحازم فكنا نجتهد في الإعداد القبلي للدروس في المنازل قبل أن تطأ أقدامنا حجرات الدرس، ويحدث أحيانا أن ننسى ما كُلِّفْنا به حتى يذكرنا بذلك بعض أصحابنا ونحن على أعتاب الحجرات، فترى أعين المتعلمين تبحث في كل اتجاه وصوب أملا في نسخ ما في دفاتر زملائهم المواظبين، ثم يجثون على الأرض مُمنين النفس أن يتأخر الجرس حتى تخط أناملهم بعض الأسطر التي تشفع لهم وتجنبهم العقاب، كثيرا ما كانت هذه الطريقة تنجح مع الذين منَّ الله عليهم برفقة تواظب على إنجاز الواجبات المدرسية، أما الذين يصادقون النسَّائين أمثالهم فلم يكن من العقاب بد..

يحدث اليوم أن أتناقش مع بعض الزملاء حول هذا الإعداد القبلي، ما مدى فعاليته؟ وهل يؤتي أكله كما نبتغي فعلا؟ نخرج غالبا بآراء مختلفة لا تفسد للود قضية، وكان رأيي أني أعفي تلامذتي من هذا الإعداد، لأني لا أرى له منفعة حقيقية، لأسباب عديدة أوجزها في الآتي :

- الأجيال الحالية مختلفة كل الاختلاف عن الأجيال السابقة، الأجيال السابقة كانوا غالبا ما ينجزون هذه الواجبات بالاعتماد على قدراتهم الخاصة، والمحظوظ منهم من ناب عنه أخ أو أخت في إنجاز الواجبات، أو قدم له عونا في ذلك، ولا يكون ذلك في كل الأوقات، إذ المتعلم كان مطالبا أن يتخير وقتا يكون فيه هذا الأخ أو الأخت في مزاج حسن..

- الأجيال الحالية (أغلب المتعلمين) بضغطة زر يغنمون الدرس كاملا محضرا في أبهى حلة، بل حتى التعبير والإنشاء لا يضطرون لأن يعملوا فيه فكرا، ولا أن يتكلفوا فيه مشقة، يكفي أن تعطيهم نص الموضوع ليمرروه بدورهم للذكاء الاصطناعي فيحمل عنهم عبء الكتابة والإبداع، وقبل أن يرتد إليهم طرفهم يأتيهم بالموضوع كاملا.

- ما الداعي لصياغة فرضية للقراءة في أنشطة الملاحظة والتأطير والمتعلم قد اطلع على النص مسبقا واستخلص فكرته العامة وأفكاره الفرعية؟ (هذا بالنسبة لمادة اللغة العربية على سبيل المثال).

- تفاعل المتعلمين الكبير أثناء الدرس مع أستاذهم وهم يقرؤون من دفاتر الإعداد القبلي هو تفاعل وهمي في الحقيقة، لأن أغلبهم لا يد له فيما يقرأه، "بل هو مجرد وسيط بين صاحب الأجوبة الحقيقي والأستاذ، والأستاذ قادر على أن يتبين ذلك من الطريقة التي صيغت بها تلك الأجوبة

- اعتماد المتعلمين على الأجوبة الجاهزة التي تقدمها لهم المواقع على طبق من ذهب يعطل الكثير من مهاراتهم ولا ينميها، ونتبين ذلك في الفروض، فمن المتعلمين من يبدع في المشاركة حتى ليخيل إليك أنه من نجباء الفصل، لكن حينما يجد نفسه في مواجهة ورقة الامتحان، ومجردا من هاتفه وحاسوبه تأتي أجوبته ضعيفة مفككة..

لست أدري هل أنا مصيب في هذا الاجتهاد أم لا، لكني أحاول أن أجد مبررات لإعفاء تلامذتي من هذا الإعداد بعديد من الأشياء أذكر منها :

- التخفيف من الضغط على المتعلم، فتخيل مثلا لو أن كل أساتذة المواد قد كلفوه بتحضير دروس الحصة المقبلة، سينفق كل الوقت في هذا التحضير ولن يزيده ذلك إلا رهقا..

- أُفضل أن يتكلف المتعلم جهدا داخل الحصة _ولو كانت أجوبته مكتوبة " باليد اليسرى" بتعبير "امبرتو ايكو"_ سواء في استخراج أفكار النص أو المساعدة بحظ من

الجواب في أي مرحلة من مراحل بناء الدرس على أن يأتيني بجواب جاهز لا يعرف عنه شيئا، وليس له من فضل فيه غير فضل النسخ واللصق.

- أجوبة المتعلمين التي يدلون بها قد تكون غير محكمة لكن لا حرج في ذلك ما دامت من عطائهم وثمرة إعمالهم العقل، فتلك الطريق الصحيحة لتمهيرهم (اكتساب المهارة).

التربية بالحكاية

رجل جاوز الخمسين، لم يبق من شعر ناصيته سوى شعيرات بيضاء تؤذن بالرحيل، أما فوديه ومؤخرة رأسه فلم ينل منهما الزمن شيئا، فشعرهما كثيف متموج يغلب عليه الشيب كقمة جبل تكسوها بعض الثلوج، كان رجلا طويلا، نحيف الهيئة، حليق الذقن، مرسل الشارب، عيناه هجم عليهما الارتخاء لكن فيهما أطلال نظرات حادة مفعمة بالذكاء، كان ملبسه حداثيا بطابع كلاسيكي، بذلة فضفاضة وسروال من الثوب وحذاء جلدي، منذ أن عرفت الشاعر العراقي "عبد الرفيع الجواهري" وأنا أرى فيه صورة ذلك الأستاذ، بينهما شبه كبير في كل شيء، ربما لهذا كنت وما أزال أوثر أشعار الجواهري وأوثره على أقرانه من شعراء البعث والإحياء.

كان اسمه محمد لكننا مزّغنا اسمه العربي وجعلناه أمازيغيا "موحماد" وكأننا ننادي أحد الأعمام أو الأخوال، أو ربما لأن هيئته الكلاسيكية هي التي جعلتنا نحور اسمه، كان رجلا طيبا، معلما وحكواتيا، وكنا نجد في حصصه متعة لا حدود لها، ففي كل حصة قصة، وأغرب ما في الأمر أنه كان ينهي المقرر في وقته دون تأخير أو إبطاء، كيف كان يفعل ذلك؟ هذا ما لا سبيل للعلم به، الرجل كان يعي جيدا ما يصنع، فلا المقرر وضيق الزمن يكفان لسانه عن السرد، ولا السرد يحول دونه ودون إتمام مقرره.

كان "موحماد" يرد على كل سلوك مشين بحكاية، فينسى المشاغب شغبه ويصيخ السمع ليعرف أي شخصية هو من شخصيات الحكاية، وكانت لحكاياته أبعاد تربوية، غنمنا كثيرا منها، فمن حيث لا ندري غير الرجل نظرتنا لآبائنا، أن ترى رجلا في خريف عمره يحدثك عن والده بعفوية وحب، شيء يدفع المراهق ليراجع تقصيره في حق أبيه، كانت أحاديثه تشي بأنه كان شديد التعلق بوالده، وحينما تستدعي الضرورة أن يحدثنا عنه يعقد يديه فوق المكتب ويقول:

"كان الوالد الله اواليه برحمة الله" ثم يشرع في الحكاية، ولست أنكر ولا أظن أحدا من أترابي ينكر أننا كنا نأخذ من هذه الحكايات والقصص عبرا وقيما ما تزال معنا إلى اليوم، ولعل شغفنا بمكون النصوص تكون عند هذا الأستاذ، فكثيرا ما كان يستغني عن نصوص الكتاب المدرسي ويرتجل نصوصا قصصية من الواقع، فكنا نرضى بهذا التغيير الذي يستأثر بانتباهنا، فنتتبع حديثه مشدوهين، وكان أسوأ ما قد يحدث أحيانا هو أن يرن الجرس قبل أن يبلغ الأستاذ نهاية القصة أو الحكاية، وإن كانت فرحة التلميذ بسماع الجرس الذي يؤذن بنهاية الحصة لا تعادلها فرحة.

إلى اليوم ما نزال نحفظ الكثير من قصص هذا الأستاذ وحكاياته عن ظهر قلب، فنسأل الله له الرحمة حيا وميتا.

القدوة

الشيخ الرئيس ابن سينا، أحد أئمة الفكر والتربية في القرن الرابع الهجري، يتحدث عن صفات المعلم قائلا:

"ينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين، بصيراً برياضة الأخلاق، صادقاً بتخريج الصبيان، وقوراً رزيناً بعيداً عن الخفة والسخف، لبيباً قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي، ذا مروءة ونظافة ونزاهة، فالمؤدب قدوة يقتدى به".

أن يكون المعلم قدوة لمتعلميه أمر لا خيار فيه، فأكثر ساعات اليوم يقضونها رفقته، بل إن السواد الأعظم من المتعلمين يمضون مع معلميهم من الوقت أكثر مما يمضون مع آبائهم، وخصوصا في السلك الابتدائي، ولابد أن يتأثر المتعلم بمعلمه ويأخذ من طباعه، فهو مرآة تلميذه، وأي شرخ أو كسر في هذه المرآة لابد أن ينعكس على نفسية المتعلم وتربيته، لذلك يُستحب أن ينأى المعلم عن كل ما يشين أمام متعلميه، وفي حياته الخاصة له الخيار في صنع ما يشاء إن لم يتورع، ولعل أكثر ما يلتقطه المتعلم ويتشبه فيه بمعلمه لغته وأفكاره وحتى ملبسه، فلابد أن تتسلل كثير من الكلمات من قاموس الأستاذ للمعجم الذهني للمتعلم، وقد تظل معه إلى مماته، فيفضل أن تكون هذه الكلمات عذبة رائقة لا تنبو عنها الأذن وفي تداولها الصلاح، أما الأفكار فلا ينبغي للمعلم أن يمرر لمتعلميه قناعاته الشخصية وتوجهاته الفكرية والسياسية..، فكم من القناعات ورثها التلاميذ عن أساتذتهم فتبنوها ودافعوا عنها ردحا من الزمن ليس باليسير، فذلك شيء ما أنزل الله به من سلطان، وهذا شيء جربناه بأنفسنا، أما الملبس ففيه كثير من الكلام، لأن هناك ظواهر يطول فيها النقاش، فبعض المعلمين يبيحون لأنفسهم الاتزار بما تهوى أنفسهم حتى لو تشبهوا بالمتعلمين، ومبررهم في ذلك أنهم في زهرة الشباب والحرية، وأنهم يهدمون الفواصل بينهم وبين متعلميهم، وأنهم ضد الاستعلاء الذي يحاول بعض شيوخ التربية فرضه في كل شيء، والحقيقة أن الأستاذ ينبغي أن يتميز

بملبسه ويحرص على ألا يعبر عن نزق، وأن يكون وقوراً رزيناً بعيداً عن الخفة والسخف كما قال الشيخ الرئيس، لأنه يقف لساعات أمام تلامذته وأعينهم تفحصه من ناصيته حتى أخمص قدميه، وأذكر حينما كنا تلامذة في الابتدائي، أن معلما لنا كان يسكن بالمدرسة قدم إلى حصة صباحية على عجل، وكان طرف سرواله عالقا في أعلى الجورب، وأمضينا الحصة نتنذر بذلك إشارة وهمسا، بدا الأمر لنا غريبا، فالمعلم في مخيلتنا الطفولية كامل لا ينبغي أن يعتريه النقصان..

التربية الأخلاقية

هل التربية الأخلاقية نتاج التربية الثقافية؟ نرى أن بعض التلاميذ على سبيل المثال لا يحترمون الفضاءات ولا يحافظون على نظافتها، يكتبون على الجدران، أو يتلفظون في الفضاءات العامة بألفاظ نابية صادمة، أو قد يقدمون على كثير من السلوكات المرفوضة، في حين أنهم الأولى باجتناب هذه الأمور، وكثير من الناس حينما يرون متعلما يأتي بسلوك مشين يوجهون مباشرة أصابع الاتهام للمدرسة باعتبارها المسؤولة عن إقدام هذا المتعلم على هذه السلوكات، وأنها لو أدت وظيفتها لتلافينا هذه الأشياء المرفوضة التي تصدر من المنتسبين إليها، قد نتفق مع هؤلاء جزئيا، ونقول أن المدرسة تتحمل جزءا من المسؤولية، لا المسؤولية كلها، وذلك لأن هذا المتعلم قبل أن تطأ قدماه حجرات الدرس ترعرع داخل أسرة تشرب منها الكثير من القيم والمعتقدات والأفكار والتصورات منذ نعومة أظافره، وتلقى في كنفها نوعا من التربية..

ينبغي أن تكون وظيفة المدرسة هي التعليم بالدرجة الأولى ثم تأتي التربية من خلال إكساب المتعلم قيما ومثلا جديدة لم يمكنه منها الوسط الذي عاش فيه، وكذلك سد الثغرات الحاصلة في تربية هذا الطفل، أو تقويم المعوج، أو تصحيح بعض التمثلات، أما أن ترسل للمدرسة طفلا عديم التربية لأقصى حد، وتنتظر من المعلم وحده أن يربي هذا الطفل دون أن تتظافر جهوده مع جهود الوالدين فهذا شيء صعب، فالمعلم لا يمكنه أن يخصص الحصة كلها للتربية وهو بين سندان زمن التعلمات ومطرقة الاكتظاظ، وإكراهات أخرى تطفو للسطح بين الحين والآخر.

لقد سبق للفيلسوف الفرنسي ووزير التربية السابق "لوك فيري" أن دافع عن مثل هذا الطرح حينما قال " الرأي الذي دافعت عنه منذ كنت وزيرا، هو أن التربية يجب أن تسبق التعليم وتعبد له الطريق، في غياب هذا الأمر تصبح المهمة مستحيلة على المعلم. أزمة التعليم راجعة إلى أن المعلم يجد نفسه أمام مجوعة من الأطفال عديمي

التربية. عملية توزيع المهام بين الآباء والمدرسين لم تعد تعمل بشكل جيد"، حينما نقول أن على الآباء أن يكلفوا أنفسهم جهدا في تربية أبنائهم وتتبعهم فإننا في الآن نفسه لا نغيب معطى هاما، وهو أن هؤلاء الآباء منهم المهملون، ومنهم ما دون ذلك، فالمهملين منهم، استطابوا كسل التربية، وآثروا أن لا يكلفوا أنفسهم جهد تربية فلذات أكبادهم، وتتبعهم، وتعويدهم المواظبة، ولئن سألتهم ليقولن متفاخرين أنهم يوفرون لأبنائهم كل ما يحتاجونه من ضروريات الحياة، فيخيل إليك أنهم يتحدثون عن أشخاص بالغين، وكأن توفير كل شيء للابن أو الابنة كاف لعصمتهم من النوائب والخطوب التي تتربص بهم، وأعطي مثالا بسيطا هنا (هل توفير هاتف ذكي من قبل الوالدين للمتعلم في الإعدادي ليستعين به على التعلم يعفيهم من التتبع؟

لا نظن ذلك فأنت وضعت بين يدي ابنك خيرا وشرا، وواجب عليك أن تحرص على أن يستعمل ابنك الجانب الخير في هذا الهاتف، وإذا لم تفعل فإن النفس أمارة بالسوء، وسيميل ابنك لجانب الشر، ويمكننا أن نضرب أمثلة أخرى في غاية الخطورة فثمة آباء ينشدون الهدوء، وعوض ملاعبة أبنائهم يلقون لهم بهواتفهم ليتخلصوا من ضجيجهم احتذاء بالأمهات اللواتي يعطين الرضع "المُسَكتة"، ومنهم من يحاول أن يرضي ضميره، فيعطي لابنه أو ابنته هاتفه وهو يطلب منه أو منها الاستعانة به على إنجاز الدروس، ثم ينشغل عن هذا الابن كل الانشغال، ولو افترضنا أن هذا المتعلم يشاهد بالفعل دروسا فمن يضمن أي نوع من الإشهارات تعرضها هذه القنوات، أو ما قد تجذبه إليه بعض الصفحات..

أما الحديث عن الأمهات فذو شجون، ولن أخوض فيه غير أني سأسوق شاهدين في الموضوع يكفياني عناء الحديث.

الشاهد الأول:

روى أبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم :

"تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ."

الشاهد الثاني : قال حافظ إبراهيم

الأُمُّ مَدرَسَـةٌ إِذا أَعدَدتَـها أَعدَدتَ شَعباً طَيِّبَ الأَعراقِ

وأختم الحديث عن صنف آخر من الآباء الكدح المنشغلون بالبحث عن لقمة عيش، يسعون إليها سعيا حثيثا، فيلقون في سبيل ذلك مشقة عظيمة لا يعلمها إلا الله وإخوانهم في الحاجة، إن هؤلاء الناس لا يجدون فسحة أو متسعا من الوقت لأبنائهم، فهم ينفقون يومهم في الكد والنصب، وفي الليل تتهاوى أجسادهم المتعبة تطلب شيئا من الدفء والراحة، ويستبد بهم الغم والهم، وتجمد مطالب الحياة في عروقهم كل قطرة دم، وأشقاهم من لا يجد ما يطعمه لأكثر من فم، وأبناء هؤلاء عليهم أن يكونوا أكثر دراية أن أي تهاون منهم هو طعنة غدر في ظهور آبائهم وأمهاتهم، وخيانة لتضحياتهم الجسيمة في سبيل توفير ضروريات الحياة ..

"جرجانية حتى النخاع"

رحم الله أستاذتنا مليكة حفان، أستاذة مادة البلاغة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، كانت من سدنة اللغة العربية، ومن تلك الثلة القليلة التي تأخذها الحمية على لغة الذكر الحكيم، فتبذل في سبيلها كل ما وهبها الله من جهد وقوة، تفانت في تدريس هذه اللغة تفانيا عظيما قل نظيره، كانت مثالا للجد والمثابرة، وأينما وجد الجد وجدت الصرامة.

أما عن كونها مثابرة ومجدة فالدلائل على ذلك كثيرة، ولا يحتاج الطالب جهدا كبيرا ليتبين الأمر، كانت الأستاذة فصيحة اللسان جهورية الصوت، تصل المحاضرة بالأخرى في كثير من الأحيان دون ملل ولا كلل، بل إن من كان يتابع دروسها سيلحظ أن المرأة كانت تستمتع بما تصنع، وهي تبحر بك في تاريخ الأدب بالمشرق حتى ليخيل للطلبة أنهم لن يبلغوا المرفأ ولو بنهاية الدورة أو العام، ولعل هذا أكثر ما كان بعض الطلبة يؤاخذون عليه الأستاذة، فقد أرادوها مقلة في الدروس سخية في النقاط، وهما أمران لا يجتمعان للمخلص في عمله..

"أنا جرجانية حتى النخاع" هكذا كانت أستاذتنا تقول وهي تشرح لنا الدلائل والأسرار لعبد القاهر الجرجاني رحمه الله، لم نفهم سر هذا الشغف بالجرجاني آنئذ، لكننا في مراحل لاحقة أثرت علينا بعض القراءات، أو طالت ملازمتنا لبعض الكُتَّاب حتى تقوت الصلة بيننا وبينهم، حينها علمنا علة ذلك التعلق بالجرجاني، فقد درسته الأستاذة دراسة وافية ووجدت فيه ضالتها، لم يقتصر شغف الأستاذة على الجرجاني فحسب، بل كانت شديدة التعلق بالمعتزلة أيضا، فقد كان "للزمخشري"، و"للقاضي عبد الجبار" وغيرهم نصيب من اهتمامها، حتى أنها كثيرا ما كانت تنفي عن نفسها تهمة الاعتزال لكثرة ما كانت تدافع عن هذه الفرقة، وتذكر بجهودهم في خدمة اللغة والدين وإن كانوا ضلوا في كثير من الأمور.

كانت ضليعة بدروس البلاغة، ولا يجتاز هذه الوحدة من الطلبة إلا من نوع قراءاته وكرس جهده للدرس والتحصيل، وحضر الدروس وتيقظ فيها، كانت تحب أن يتعمق الطالب في تحليل الأبيات الشعرية لا أن يكتفي بجرد الصورة الشعرية فحسب، وليتعمق الطالب في تحليل بيت شعر وجب عليه أن يتذوقه أولا، وأن تنكشف له مغالقه، وهنا كانت تكمن الصعوبة لكثير من الطلبة، لم يتيموا بالشعر، إذ بضاعة الشعر مزجاة في زمننا هذا، وجل الجمهور هجروه ويمموا وجوههم شطر السرد .

يطول الحديث عن الأستاذة، ولسنا نملك إلا أن ندعو لها بالرحمة والمغفرة، فقد زرعت بداخلنا بذرة البلاغة التي كبرت مع المواسم الدراسية حتى أينعت، وحببتنا في الكتاب في زمن بينه وبين الناس جفاء..

إن من البيان لسحرا

للغة سلطة عجيبة، وتأثير مدهش، وسحر يلقيه المتكلم على المخاطب، هذا درس طويل كتب فيه علماء وفلاسفة وأدباء ومفكرون، ولسنا نريد أن نخوض فيه لأن المقام ليس مقام كتابة أكاديمية، ما نبتغيه هو أن نشير أو نستحضر بعض الأمثلة التي تتجلى فيها سلطة اللغة حتى تصير سحرا إذا توفر فيها شرط البيان، ولعل المدرسة والمؤسسات الجامعية من أكثر الأمكنة التي تحتضن البيان، وفيهما يشيع ويكثر.

ما أزال أتذكر بعض أساتذتنا في الثانوي ممن خصهم الله بالفصاحة، وأنعم عليهم بقدر يسير من البيان، كانوا يمتعوننا بفصاحتهم وإن كانوا يحاولون التبسيط، ليتوافق خطابهم مع قدرات الناشئة، أما في الجامعة فالأمر مختلف، فللأستاذ كل الصلاحية أن يصول ويجول كما يشاء في يم اللغة المترامي الأطراف، لأن المتلقين لهم قدرة على المواكبة، وعلى التقاط الإشارات البيانية، وتحليل الصور وإن كانت مركبة..

ثمة أساتذة في الكلية تركوا فينا أثرا عميقا، بالنسبة لي لم أكن شغوفا بالدروس في صبغتها المعهودة، بل كانت تستهويني المحاضرات التي يأخذ فيها المحاضر من كل فن بطرف، فتلك سمة على موسوعية المحاضر، وإذا كان هذا المحاضر فصيحا لا يتكلف، ولا تخذله التراكيب فإن المتعة التي كنا نصيبها كانت تتضاعف، إن الأستاذ المتبحر إلى جانب ما تصيبه من محاضرته من منفعة تتلقفها الأذن فإن اليد تبادر أناملها أيضا لتدوين المراجع والمصادر التي ترد بين الحين والآخر في ثنايا الكلام، وغالبا ما تكون هذه المراجع والمصادر المحال إليها مما ينفع الطالب ويمكث في الأرض، فالقارئ المحظوظ من يوجه إلى عيون الكتب والمؤلفات، فذلك يعفيه من إنفاق وقته في مطالعة كتب الفائدة فيها محدودة والمتعة فيها مفقودة.

سيظل فينا دائما شيء من أساتذتنا، وسيكون في تلامذتنا شيء منا، ولعلنا إلى يومنا هذا ما نزال نوظف كثيرا من التعابير التي أخذناها عن بعض الأساتذة، بل كثيرا ما

نجد أنفسنا نقلدهم حتى في طريقة الكلام، وما هذا إلا لأنهم استطاعوا ببلاغتهم وفصاحتهم أن يدهشونا باللغة دهشة تشبه دهشة الطفل أو الفيلسوف..

إن المعلمَ لا يعيشُ طويلا

لعلنا نحفظ جميعا قصيدة أمير الشعراء "أحمد شوقي" التي امتدح فيه المعلم، أو على الأقل سمعنا بها، لكن ثمة قصيدة أخرى رائعة عارض فيها الشاعر والمعلم السابق "إبراهيم طوقان" قصيدة شوقي، ويعد الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان من طليعة الشعراء، وأكثر من جسد هموم المعلم في الشعر العربي، فقد اشتغل بالتدريس وعاش مهنة التعليم وخبر مشقتها، من خلال التجربة العملية في المدارس والفصول وبين التلاميذ على اختلاف طبقاتهم، وأدرك ما يواجهه المعلم من صعوبات ومشكلات وهموم تثقل كاهله، وشعر بثقل ما تحمِله رسالة التعليم من أعباء، خاصةً في ظل الإكراهات التي تحول بين المعلم وبين أداء رسالته على الوجه الذي يرضى عنه كوريث للأنبياء، فنتج عن هذا الشعور والإحساس لديه أن نظم قصيدته اللامية المرحة الظريفة التي تحكي معاناة المعلم، وهو يعارض فيها قصيدة أحمد شوقي التي دعا فيها إلى تبجيل المعلم، وهو لا يدري بحاله وما يقاسيه من مشاق ومصاعب في أداء رسالته، يقول طوقان في مطلع قصيدته:

شَوْقِي يَقُولُ وَمَا دَرَى بِمُصِيبَتِي
قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجِيلا
اقْعُدْ فَدَيْتُكَ هَلْ يَكُونُ مُبَجَّلاً
مَنْ كَانِ لِلْنَشْءِ الصِّغَارِ خَلِيلا
وَيَكَادُ يَفْلِقُنِي الأَمِيرُ بِقَوْلِهِ
كَادَ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولا
لَوْ جَرَّبَ التَّعْلِيمَ شَوْقِي سَاعَةً
لَقَضَى الْحَيَاةَ شَقَاوَةً وَخُمُولا

حَسْب الْمُعَلِّم غُمَّةً وَكَآبَةً

مَرْأَى الدَّفَاتِرِ بُكْرَةً وَأَصِيلا

مِئَةٌ عَلَى مِئَةٍ إِذَا هِيَ صُلِّحَتْ

وَجَدَ العَمَى نَحْوَ الْعُيُونِ سَبِيلا

وَلَوْ أَنَّ فِي التَّصْلِيحِ نَفْعَاً يُرْتَجَى

وَأَبِيكَ لَمْ أَكُ بِالْعُيُون بَخِيلا

لَكِنْ أُصَلِّحُ غَلْطَةً نَحَوِيَّةً

مَثَلاً وَاتَّخِذ الكِتَابَ دَلِيلا

مُسْتَشْهِدَاً بِالْغُرِّ مِنْ آيَاتِهِ

أَوْ بِالْحَدِيثِ مُفَصّلا تَفْصِيلا

وَأَغُوصُ فِي الشِّعْرِ الْقَدِيمِ فَأَنْتَقِي

مَا لَيْسَ مُلْتَبِسَاً وَلاَ مَبْذُولا

وَأَكَادُ أَبْعَثُ سِيبَوَيْهِ مِنَ الْبلَى

وَذَوِيهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الأُولَى

لاَ تَعْجَبُوا إِنْ صِحْتُ يَوْمَاً صَيْحَةً

وَوَقَعْتُ مَا بَيْنَ الدروج قَتِيلا

يَا مَنْ يُرِيدُ الانْتِحَارَ وَجَدْتهُ

إِنَّ الْمُعَلِّمَ لاَ يَعِيشُ طَويلا

الحفظ

درسنا اللغة العربية في السنة السادسة ابتدائي على يد مدرس صارم لحد لا يطاق، وذا قلب لا يرحم، كان من فئة المعلمين الميسورين الذين لا يُعولون على كسب خبز كفافهم من التعليم، وربما كان التعليم بالنسبة إليه ترفا، لم نستشعر منه يوما شفقة أو عطفا، إلا في لحظة واحدة، هي عندما يكلف أحدنا بغسل سيارته "الميرسيديس" فيبرع في ذلك براعة أهل الاختصاص..

كان لا يغفر الزلات وينزل بأصحابها أشد العقاب، قوي البنية، ضرباته موجعة يتوجس منها حتى أشداء الفصل، حينما يغادر القاعة يكلف تلميذة بتسجيل من شاغب ولو همسا في ورقة صغيرة تقدمها له حين عودته، وذات يوم استهان أحد المتعلمين الأشداء ممن يعرف بقوة التحمل والتجلد ومعاندة المعلمين بالأمر، فتكلم وشاغب، وما كان من المكلفة بورقة المذنبين إلا أن سجلت اسمه ووضعت أمامه ست نجيمات دلالة على مبالغته في الشغب. آبَ المعلم وتوجه عند المكلفة بوسم المتغيبين فأخذ منها ورقة المحكومين لينالوا جزاءهم، وجد اسم الفتى وأمامه ست نجيمات، فعقد ما بين حاجبيه، واحتقن وجهه، كان الفتى يجلس في الطاولة الأخيرة، أشار إليه المعلم للمثول أمامه، فمثل مطأطأ الرأس، هز المعلم ذقن هذا المتعلم باليد اليسرى وباغته بصفعة بيده اليمنى، صفعة سُمع صداها في الأرجاء، استدار مترنحا ليعود لمقعده، فضلَّ الطريق، فقد أفقدته قوة الصفعة تقدير المسافات والتبست عليه الصفوف، إذ نسي مقعده واتخذ لنفسه مقعدا آخر في صف آخر بجانب إحدى المتعلمات، ولو لم يأخذ أحد المتعلمين بيده ليرشده لمقعده لظل يتنقل بين الطاولات بحثا عن مقعده..

رغم ما حكيناه عن الرجل من شدة وغلظة إلا أنه كانت له بعض المحاسن، منها أنه كان يحملنا على حفظ بعض النصوص الشعرية الفريدة، فقد كان شغوفا بشعر

فيلسوف التفاؤل "إيليا أبو ماضي" مفتونا به، وقد ألزمنا جميعا بحفظ قصيدته "ابتسم" التي مطلعها :

قال السمـــاء كئيبة وتجهمـــا قلت ابتسم يكفي التجهم في السما

إلى جانب قصائد أخرى، ولأن الرجل كان لا يرحم فقد حفظناها جميعا دون استثناء، حتى التلاميذ الذين لم يلتزموا يوما بواجب تكلفوا جهد وعناء الحفظ.

لقد كان لهذا المحفوظ دور كبير في إثراء المعجم الذهني للمتعلمين، للأسف أننا اليوم لا نولي أهمية كبيرة للحفظ في المدارس، سواء حفظ الذكر الحكيم، أو مختارات من الشعر، هي سنة مهجورة اليوم في المدرسة المغربية، وقد لاحظت أن بعض المتعلمين الذين أعهد إليهم بحفظ بعض القصائد سواء "لنزار" أو "فاروق جويدة" أو "إيليا أبو ماضي" أو غيرهم، أثناء تحليلهم للنصوص الأدبية في السنة الثانية بكالوريا ترد بعض الألفاظ والتراكيب من هذا المحفوظ في هذا الإنتاج، وأفرح كثيرا حينما يحدثني أحد هؤلاء الفتية أنه افتتن بشعر هذا الشاعر أو ذاك، أو أنه اجتهد في الاطلاع..

إن الدعوة لتلافي الحفظ اليوم ليست جديدة بل قديمة ونجد الجاحظ مثلا قد أورد في "رسالة المعلمين" النص الآتي: "وكَرِهَت الحكماء الرؤساء، أصحاب الاستنباط والتفكير، جودةَ الحفظ، لمكان الاتِّكال عليه، وإغفال العقل من التمييز، حتى قالوا (الحفظ عِذْقُ الذِّهن). ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مُقلِّدا، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعزّ الثقة" يرى الجاحظ أن الاعتماد على الحفظ بشكل مُطلق أمر يعلّم الاتِّكال، ولا يساعد الصبيان على تنمية مواهبهم وصقلها بالشكل المطلوب.

غير أنه عاد ليستدرك الأمر ودعا للموازنة بين الحفظ والاستنباط لبلوغ الهدف المنشود: يقول أبو عمرو : "والقضية الصحيحة والحكم المحمود: أنه متى أدام الحفظ أضرَّ ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أَضرَّ ذلك بالحفظ" ومعنى هذا الكلام أن

الحفظ مطلوب في إطار مساعدته على ترسيخ الاستنباط، لكن الملاحظ اليوم أننا غيبنا الحفظ وأدمنا الاستنباط فأضر الثاني بالأول.

عتيقة

يقول الجاحظ ناصحا المعلمين:

"واحتل في أن تكون أحبَّ إليه من أمه"

امرأة في الخمسين، سمراء البشرة، ترتدي جلبابا فضفاضا، فتشعر بها وهي تدخل الفصل وكأنك تستقبل إحدى الأمهات، رزينة ومما ينفع الناس ويمكث في الأرض، درستنا لأشهر معدودات، لكن تركت فينا أثرا دائما، كانت أمّا قبل أن تكون أستاذة، كنا نشعر بها قريبة جدا منا، اليوم فقط استنتجت سبب هذا الشعور، كنا تلامذة مُملقين مطبوعة على وجوهنا سحنات الفقر والقهر والحاجة، وكانت شفوقة عطوفة بنا، كثيرا ما كانت تنادي أحد التلاميذ الذين يبذلون جهدا في التعلم وتسر له بقول لا نعلمه فيعود للصف منشرح الأسارير وكأنه حاز جائزة أو نال تكريما، كانت تقول لهم همسا دون أن يتفطن لقولها أحد:

إن احتجت لدفتر أو كتاب أو أي شيء يتعلق بالدارسة فأحطني علما بذلك، لكن شريطة أن تواصل اجتهادك.

يقطعون لها وعدا ويجدون في الالتزام به ما وسعهم الأمر، إن هذه المبادرات وإن بدت بسيطة في الظاهر إلا أن أثرها عظيم على المتعلم، فهذه المبادرات وما يشبهها هي التي تبيح لنا القول إن المعلم كاد أن يكون رسولا، فحين يسمو المعلم فوق ما يمليه عليه الواجب المهني ليفتح آفاقا إنسانية رحبة، لا لمصلحة يصيبها، إنما لأجر يبتغيه عند خالقه، وفي المسيرة الدراسية لكل متعلم سيكون قد صادف معلمين أبدوا حرصا شديدا على مصلحة متعلميهم، ولم يدخروا جهدا ولا نصحا في سبيل أن يدفعوا بهم للأفضل، فالمعلم أسعد الناس بنجاح تلميذه، بل هو يحب أن يرى تلميذه قد تفوق عليه، وبلغ أحسن المراتب لأنه يعرف أنه أسهم في هذا النجاح إلى جانب إخوانه المعلمين وجهود الوالدين.

ذات يوم ولجنا القاعة ننتظر مجيء أستاذتنا عتيقة، ففوجئنا بأستاذة جديدة تحل محلها، افتقدنا تلك الأستاذة الأم من الفصول، لم نعرف ما حل بها ولا إلى أين انتقلت، ولا كيف حدث ذلك، لكن نحتفظ الذي ندريه هو أننا نحتفظ لها بامتنان كبير نظير الأشياء الكبيرة التي قدمتها في وقت وجيز.

التأديب

" ولا تستطيع أن يمحضك المِقَة، ويصفي لك المودَّة مع كراهته لما تحمل إليه من ثِقل التأديب عند من لم يبلغ حال العارف بفضله"

"أبو عمرو عثمان الجاحظ"

عجيب أمر الذاكرة، تستغني عن أشياء وإن كنت متعلقا بها أشد التعلق، وتتمسك بأشياء وأنت قد زهدت فيها كل الزهد، في السنة الرابعة ابتدائي خبرت حدثا لم تمحوه السنين من ذاكرتي الطفولية، وإن كنت قد جهدت في ذلك كل الجهد، فيما يخص الذاكرة الإنسان مسير لا مخير إن صح هذا القول، لو كان للإنسان حق التصرف في مخزونه من الذكريات بالحذف أو التعديل ما دمعت مقلة أسفا على ما انصرم، لكن أقصى ما يستطيعه المرء هو الصد والتجاهل وفي كثير من الأحيان تنهار دفاعاته..

درسنا الفرنسية في السنة الرابعة ابتدائي على يد معلم ضخم الهيئة، أصلع الرأس، في الخمسين من العمر، كثير التأفف والعقاب على أبسط الأمور، وكان إقبالنا على حصصه كمن سيقبل على يوم الحساب، كنت في طفولتي شغوفا بإطالة شعري حريصا على نظافته، وذات يوم كان المعلم يمشي بين الصفوف يراقب الدفاتر ، نظر في دفتري فَسُرَّ لأني أنجزت المطلوب، رفع بصره لرأسي الصغير فتجهم لأني أطلت شعري، مد يده الغليظة إلى فودي الأيمن وجمع قبضته على شعره، انتزع كل ما أحكمته قبضته من شعر ثم وضعه أمامي على الطاولة قائلا : "قص هذا الشعر" لم أنبس ببنت شفة وكتمت عبراتي متجلدا تجلدا عجيبا، كان المفروض أن أنهار باكيا لأن الألم كان لا يطاق، أخذت الشعر المنتوف فوضعته في جيب سروالي وتحملت بصبر طفولي إلى أن انتهت الحصة، ثم غادرت المدرسة وأنا أتساءل هل إطالة الشعر جريمة شنعاء؟ أيستحق الأمر كل ذلك العقاب؟

بعدها قصصت شعري وظل أثر النتف باديا لأيام قبل أن ينبت شعر جديد، نبت الشعر لكن لم تنبت الرغبة في تعلم الفرنسية لأني وأدتها منذ ذلك اليوم، ولا أظنها ستولد ولو عشت حياة أخرى..

إن التأديب أمر لابد منه، والمعلم يستعين به في كل وقت وحين في أداء واجبه، لكن إذا كانت الغاية من التأديب هي الإصلاح وردع المتعلم عن تكرار سلوك مشين، فلا ينبغي أن ينقلب إلى تدمير، خصوصا إذا كان تأديبا لا ضرورة تستدعيه، وأحسن التأديب ما كان بالتدرج وابتدأ بالنصح واللين..

بين الخوف والاحترام

إن علاقة المتعلمين بأساتذتهم معقدة جدا، لأنها مبنية على التفاعلات المختلفة، وإذا كان يجب على المعلم أن يعامل طلابه بأدب واحترام، بما يحفظ كرامتهم، فماذا يتوجب على الطلاب نحو معلمهم، يمكن أن نجرد الكثير من الواجبات، لكننا نحب أن نحصرها في كلمتين يسيرتين في التفريق خطيرتين في التطبيق، وهما الخوف والاحترام، ولابد قبل أن نمضي قدما في هذا الحديث أن نعطي تعريفا لما نقصده بالخوف أو الاحترام، الخوف هو حينما يتوجس المتعلم من معلمه درءا لأي عقوبة تحل به، فهذا المتعلم يصطنع الدعة، ويبتكر الأساليب، ويغير في أقنعة الطاعة حتى ينال المراد، والاحترام هو حينما يستحي المتعلم من معلمه ويكن له تقديرا نابعا من القلب لا تصنع فيه، وقد يغلب على المتعلم الطيش والنزق أحيانا فيأتي بما يكره أستاذه، لكن نظرة عتاب واحدة تكون كافية لزجره وتقديم اعتذار صامت تترجمه حركات وجهه، ولا يتأتى هذا إلا من خلال تعاقد مضمر، نتيجة أسابيع من التفاعلات بين الطرفين، وعلى المعلم أن يوجه هذه التفاعلات والتعاقد نحو الاحترام لا الخوف، لأن الاحترام مستمر والخوف زائل، فسواء أسَرَّ المتعلم احتراما لأستاذه، أو أعلنه، فإنه حتى بعد تقدمه في مساره الدراسي يظل هذا الاحترام حيا في وجدانه، ولو قدرت له الظروف لقيا هذا الأستاذ، ولو بعد سنين عددا فإنه يقبل عليه هاشا فرحا مسرورا بلقائه، ولسانه يلهج بالشكر والثناء ، أما الخوف فمثله مثل المرض سرعان ما يزول بزوال علته، فما إن ينتهي الموسم الدراسي أو ينتقل المتعلم من المؤسسة، أو ما إن يعلم أنه لم يعد تحت سلطة الأستاذ حتى يتحرر من خوفه، بل أحيانا قد يتحور هذا الخوف فينقلب حقدا..

ذات يوم وأنا أسير في الشارع لمحت رجلا خمسينيا يجلس في المقهى مع فتى في مقتبل العمر، حدست أنه ابنه، كانا يحتسيان الشاي، توقفت وحدقت في الرجل من بعيد لأتبينه، إنه هو، أستاذي في الثانوي التأهيلي لمادة الفرنسية، أردت أن أتوجه إليه

لأحييه، فتهيبت تهيبي لاتخاذ القرارات العظيمة في حياتي، وشعرت وكأني سأقدم على أمر خطير، وفوق كل ذلك غلبني الحياء، لكن ما كنت أحمله من تقدير للرجل أسلم القياد لخطاي نحو المقهى، ألقيت عليه التحية، ببديهة الأستاذ علم أني أحد تلامذته القدامى فلم يبدو عليه الاندهاش، لأني كنت على عجل دار بيننا حديث قصير ختمه بالقول " أرجو أني كنت معكم عند حسن الظن، وأديت واجبي كما ينبغي"، قلت له بصوت خفيض، "لقد كفيت ووفيت" وودعته وأنا أشعر بفرح طفولي غامض، سعدت كثيرا بلقائه، ولعل من قرأ النص السابق عن التأديب سيقف حائرا أمام التناقضات التي يحملها الإنسان بين جوانحه، فالطفل الصغير الذي نقم على الفرنسية ومعلمها في السنة الرابعة ابتدائي، هو نفسه الفتى الذي يقدر ويكن كل الود لأستاذ الفرنسية في التأهيلي، وجاهد لفهم دروسه رغم أن نفسه تعرض عنها إعراضا شديدا، ليس لأن هذا الأستاذ نفذ إلى قلب الفتى من خلال دروسه، بل لأنه حمله هو وأترابه على احترامه.

زهور الحياة

"هم زهور الحياة، ويجب علينا أن نحميهم ونغرس فيهم الحب والتفاؤل"

"ليو تولستوي"

أصعب ما في التعليم هو أنك تتعامل مع العقول المختلفة المتباينة، فداخل كل فصل ما يزيد عن ثلاثين عقلا، والأستاذ مطالب أن يجيد التعامل مع هؤلاء جميعا، وأن يتواصل معهم أحسن التواصل ما وجد إلى ذلك سبيلا، وهذا أمر ليس باليسير في غياب المعطيات الكافية عن شخصيات وظروف عيش هذه الناشئة، نظن والله أعلم أنه ينبغي أن يتوفر ملف شامل عن وضع التلميذ الاجتماعي والنفسي يعود إليه الأساتذة كلما اقتضت الضرورة ذلك، صحيح أن هناك محاولات من هذا القبيل في المؤسسات، لكنها محاولات متعثرة لا تشفي الغليل، لأنه كثيرا ما يصادف الأستاذ بعض المشكلات مع بعض المتعلمين بالتحديد، فيسلك في حلها السبل المعهودة، ولو توفر له ما ذكرناه لكان الأمر مختلفا.

إن المتعلم قد يأتي للمدرسة مشحونا ساخطا على كل شيء، وهو قد خلف وراءه في دارهم ما لا يعلم به إلا الله، فقد يكون شهد للتو صراعا بين والديه، أو عنفا بينهما، أو قد يكون ناقما على وضع معيشي يعيشه، و قد يكون عنف في فضاء من الفضاءات، يجلس في مقعده ويجد نفسه ملزما بالانضباط، ونفسه تتوق لتحطيم كل شيء، ولا يجد سبيلا للتعبير عن سخطه إلى بافتعال المشاكل والتشويش على زملائه، في محاولة لجلب الانتباه..

كثير من المتعلمين يحملون مآسي تفوق قدرتهم على التحمل، ومرهقة لمن هم في سنهم، وهذا شيء خبرته بنفسي، فأحيانا في مهارة إنتاج نص سردي أعطي الخيار للمتعلمين أن يكتبوا عن أحداث أثرت في حياتهم، وأطلب منهم أن يصبوا هذه الأحداث

في قالب قصصي، فأغنم من ذلك منفعتين، المنفعة الأولى تدربهم على المهارة بشكل أفضل، لأن الإنسان وهو يكتب عن نفسه يطاوعه القلم أكثر مما يطاوعه وهو يكتب عن أشياء لا تتصل أسباب بينه وبينها، والمنفعة الثانية أنه يتاح لي أن أعرف واقع بعض المتعلمين من خلال بوحهم المؤثر، ويتاح لي أن أستثمر ذلك في تعاملي مع هفواتهم وبعض ردود أفعالهم، وودت لو أقدم أمثلة مما باح به هؤلاء وأن أشرك قارئ هذه الأسطر نصيب المتعلم مما قد يلقاه من ثقل النزاعات الأسرية التي يتحملها راضيا أو مكرها، لكن يشق علي أن أخذل ثقتهم، وما كان ينبغي لي ذلك.

كلمة طيبة

يورد المثل الأمازيغي هذه الحكمة على لسان الأسد :

"أديجي أوترس ولا إيجي كار أوال"

"سيندمل الجرح وترسخ الكلمة الجارحة"

الأستاذ وسيلته في التعليم اللسان، والكلام رأسماله الذي يسعى دائما إلى تنميته بالقراءة والتكوينات وتتبع سبل العلم، والكلام الذي نتحدث عنه هنا هو الكلام الذي يدرس به العلم، وليس الكلام اليومي المستهلك، لكن ثمة نوعا آخر من الكلام يلجأ إليه الأساتذة هو تلك الأقواس المقتضبة التي يفتحها خلال الحصة، أو تلك التوجيهات التي يوجهها لمتعلميه، فمن الجميل أن تتضمن كلاما طيبا، فالكلمة الطيبة صدقة كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، والأستاذ إنسان على كل حال، ولابد أن يغضب إذا آنس فتورا من متعلميه، أو رأى من أحدهم ما يشين، لكن يستحب أن يكون صُرعة، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأل أصحابه:

"ما تعدُّونَ فيكمُ الصُّرعةَ ؟ قُلنا : الَّذي لا تصرَعُهُ الرِّجالُ ، قالَ : لا ولَكِن الَّذي يملِكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ".

فعند الغضب قد يتلفظ الأستاذ بقول جارح يزول من ذاكرته بزوال غضبه، لكنه يخلد في نفس هذا الصبي أو المراهق، ويجد مشقة في انتزاعه من باله، وإن بَلغ من الكبر عتيا، وكما ترسخ الكلمة الجارحة في نفس المتعلم ترسخ الكلمة الطيبة، ولعل ما يرويه لنا المفكر الجميل "عبد الوهاب المسيري" في كتابه "رحلتي الفكرية" خير مثال، يقول عبد الوهاب:

"كنت لا أنجح في الدراسة إلا في الدور الثاني، حتى وصلت للمرحلة الثانوية فقال لي مدرس التاريخ: أنت عبقري يا عبدالوهاب!

فتغيرت حياتي منذ ذلك اليوم، مع أني لا أدري هل اكتشفني فعلاً أم أنه كان من باب التشجيع وأنا صدقته، والمهم أن النتيجة واحدة فقد تغيرت حياتي منذ سماعي لتلك الكلمة".

ويروي لنا "الذهبي" الإمام المحدث الشهير في مؤلفه تاريخ الإسلام حادثة عن شيخه "البرزالي"، وهي حادثة شبيهة بما حدث مع "المسيري"، يقول الذهبي عن شيخه: "وَكان هُوَ الَّذِي حبب إِلَيّ طلب الحَدِيث فَإِنَّهُ رأى خطي فَقَالَ خطك يشبه خطّ الْمُحدثين فأثر قَوْله فِي، وَسمعت مِنْهُ وتخرجت بِهِ فِي أَشْيَاء.."

المكتبة

"لا يوجد بديل عن الكتب في حياة الطفل."

"ماري إيلين تشيس"

إن مما يؤسف له أسفا عميقا أن هناك مؤسسات تعليمية بدون مكتبات، والإكراهات في ذلك كثيرة، والمبررات التي يبرر بها غياب الركن لا تحصى ولا تعد، أشهرها غياب الفضاء، ومن يتكلف به، وإن توفر الفضاء غاب المكلف به، والعكس صحيح، لكن هذا لا يعني أن هناك مؤسسات لا تتوفر على مكتبات نموذجية، بل إن بعض المؤسسات توفرت لها كل الظروف وشيدت مكتبات جميلة اجتهد أطرها أساتذة وإداريين في تأثيثها بالمؤلفات المفيدة وذات النفع العظيم مما ينعكس على الناشئة بالفائدة، وحين تتوفر المكتبة في المؤسسة فإن خير ما يفعله الأساتذة هو أن يشجعوا متعلميهم لكي يترددوا على المكتبة كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، وأن يوجهوهم لعيون الكتب والمقالات النافعة..

إن أغلب المدن تفتقد لمكتبات عامة، وأغلب الدور لن تجد فيها كتابا واحدا، وإن وجد يكون موضوعه الطبخ أو الأبراج، أو مجلة قديمة ظهرت من حيث لا يدري أهل الدار، فالأسر مهووسة بالتفنن في تجهيز المطابخ والتفاخر بآنياته، والمكتبة المنزلية آخر همومها، فالمتعلمون ينفرون ويضيقون بالكتاب والقراءة، فما بالك بمن لا حظ له من التعليم والتحصيل..

بالنسبة إلينا كان لمكتبة المؤسسة الثانوية التي درسنا بها فضل كبير علينا بعد الله عز وجل، ومن باب الإنصاف والاعتراف بالفضل نحب أن نشيد بالجهود الجبارة التي بذلها أطر تلك المؤسسة، فقد أسعفنا التردد عليها في الاطلاع على روايات جبران والمنفلوطي، وقرأنا فيها حتى الكتب التي لم نكن نستوعبها من باب الفضول، ومن باب

النِدّية فيما بيننا، وأذكر منها كتابا لمحمد سبيلا عن الحداثة لم أفهمه حينها، ولم أستوعبه إلا بعد أن قرأته بعين الطالب وأنا في الجامعة.

خلاصة القول المكتبة المدرسية تخلق الجسور بين المتعلم وبين الكتاب وتعمق الألفة بينهما، خصوصا لمن نشأ في بيت لا كتب فيه، وكان عبدا لهاتفه، أو عرضة لرفقة لا تقرأ..

القراءة

"القراءة هي السلاح الأول في معركة الحياة."

الدكتور "طه حسين"

في الطفولة لم أخض في اللعب واللهو ولا أنفقت الوقت مع الأتراب ولا خضت فيما كانوا يخوضون فيه، كنت أرافق من هم أكبر مني عمرا وأراهم أكثر حكمة، كان بعض أخوالي من هؤلاء، أخذت عنهم أذواقهم ونصيبا من عاداتهم وكثيرا من أفكارهم، كنت محظوظا أنهم متعلمين منفتحين على شتى الفنون خاصة الموسيقى والأدب، في سن مبكرة وأنا في الإعدادي عرفت "نيتشه" وعرفت عنترة والبارودي، وشكيب أرسلان ويحيى حقي والدكتور طه حسين، وسمعت عيون الشعر العربي لأن أحد أخوالي كانت له دربة بالأدب مولعا به، شغوفا بالقراءة مسكونا بها، وأذكر أنه حينما كان لا يجد ما يقرأه كنت أرافقه عند صاحب أحد الدكاكين ممن يعرفهم نشتري من عنده الجرائد القديمة بثمن زهيد فنقرأها ونحن نستظل بشجرة التين وأرجلنا تتدلى في مياه الساقية، وحينما نفرغ من القراءة كنت أساعده على قص بعض النصوص التي تكون قد راقته ووافقت هواه، خصوصا إن كان موضوعها فلسفة أو أدبا.

كنت شديد التعلق بالمواضيع التي تتصل بالأدب، وإلى جانب ذلك ألفيتني مغرما بأغاني أم كلثوم مستحسنا ألحان رياض السنباطي، فقد كان لي خال آخر أكسبته الدربة والمران أذنا موسيقية لا تخطئ الأنغام الجميلة، وكان عنده صندوق كبير دس فيه منتخبات الأشرطة الغنائية من كل طرب جميل، وكان شديد الهوس والعناية بهذه الأشياء يحرص على صيانة جهاز الاستماع، وعلى نفض الغبار من الأشرطة، لم يكن يحب أن يعير أشرطته لأحد ولو ألح عليه إلحاحا شديدا، كان ذلك في زمن كانت فيه الأشرطة أعظم ثروة عند صاحبها، لأن الناس لم يعرفوا ثورة تكنولوجية كالتي نعرفها اليوم، فلا أحد الساعة يطلب شريطا من أحد، لأن الناس لهم حرية اختيار سماع ما

يشاؤون بنقرة، وأكثرهم أصيب بتخمة في السماع، وما عاد صوت يستهويه ولو جئته "بزرياب"، لأن حتى أغلب الأصوات أفقدتها المؤثرات الصوتية أصالتها.

قصيدة الأطلال التي أستمتع بقراءتها إلى اليوم علقت بذهني من هذه الأشرطة بصوت كوكب الشرق قبل أن أتعرف على صاحبها "إبراهيم ناجي" بسنوات كثيرة..

نصوص متجاوزة

يجد الأستاذ نفسه محتارا وهو يدرس بعض النصوص، لا لشيء إلا لأنها نصوص متجاوزة ولا تصلح للوقت الراهن، وحتى تتضح الرؤية يمكننا استحضار نموذجين من كتاب مرشدي للجذع مشترك علوم مادة اللغة العربية، النموذج الأول نجده في المجزوءة الثانية من الكتاب، ومعنون ب "عظمة تكنولوجيا الاتصال"، وهو ضمن الصفحة 108، والنموذج الثاني يقع في المجزوءة الأولى ومعنون ب "المرأة عماد الأسرة".

نبدأ حديثنا عن النص الأول المعنون ب "عظمة تكنولوجيا الاتصال"، وهو نص مقتطف من "العرب وعصر العولمة" منشورات عالم المعرفة، العدد184، أبريل 1994، ص95-96 (بتصرف) لصاحبه "نبيل علي" الذي يسرد فيه تجربة شخصية مع التعليم عن بعد أثناء وجوده باليابان عند صديق ياباني استضافه في منزله، ويحكي لنا الكاتب بانبهار كبير كيف أنه شاهد ابن هذا الياباني يتواصل مع أستاذ له عن بعد على جهاز الحاسوب، وسجل حجم الدهشة التي انتابته في هذا الموقف، وهذا مقتطف من النص:

"في بداية الثمانينيات، كنت في زيارة لمنزل صديق ياباني في مدينة (هامامتو) التي تبعد عن العاصمة (طوكيو) بنحو مائتي كيلو متر، أخذ صديقي من قبيل المجاملة يعرفني بأفراد أسرته، فقادني إلى غرفة ابنه الذي يناهز العاشرة من عمره، فوجدناه منشغلا وكأنه في حوار مع مجهول، فأخبرني صديقي أنه يتلقى درسا خصوصيا في مادة (الجبر).

كان الطفل جالسا وحيدا في غرفته أمام شاشة الكمبيوتر مما اضطرني إلى التوجه نحو مضيفي سائلا: أين هذا المدرس الخصوصي الذي تتحدث عنه؟ أخبرني أنه في (طوكيو)، وهو يتحاور مع ابنه ضمن مجموعة أخرى من المتعلمين من خلال شبكة لنقل البيانات".

طبيعي أن يشعر الكاتب بهذه الدهشة، وأن يتساءل أين المدرس الذي يقدم الدرس، فالنص يتحدث عن ثمانينات القرن الماضي، في زمن كان التعليم عن بعد مقتصرا على

الدول التي بلغت شأوا بعيدا في التقدم التكنولوجي، ولم يكن متطورا كما هو الأمر اليوم، لأن الثورة التكنولوجية تصدمنا بالجديد في عالم الاتصال كل لحظة، وإذا قمنا بمقارنة بين التعليم عن بعد اليوم وفي سنوات الثمانينات فإن الهوة كبيرة جدا، فإذا كان الكاتب قد اندهش من هذه العملية آنذاك فإن المتعلم اليوم لا يشعر بمثل دهشته وهو يقرأ هذا النص لأن التطور التكنولوجي منذ الثمانين إلى اليوم بلغ مراتب متقدمة وصار التعلم عن بعد يتم بوسائل أكثر تطورا، وهنا ينبغي أن نتساءل ألم يكن من الأفضل أن نضمن الكتاب نصا حديثا يتناول تجربة التعلم عن بعد في اليابان في السنين الأخيرة حتى يحصل المتعلم على نصيبه من الدهشة التي حصَّلها أو قد يُحصِّلها كاتب النص ؟

وفي الكتاب نفسه نعثر على نص آخر شبيه بالأول أو أكثر منه إشكالا، وهو نص المرأة عماد الأسرة لعلال الفاسي، وهو نص مقتطف من كتاب " النقد الذاتي، منشورات دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، 1966، ص 276، 277، 282، 304، 305، (بتصرف)، وفي النص يدافع علال الفاسي عن المرأة ويؤكد على :

- أن المرأة يجب أن تتمتع بما يتمتع به الرجل من حقوق، وأن تقوم بما يقوم به الرجل من واجبات..

- ضرورة فسح المجال للمرأة للقيام بما يقوم به الرجل..

- يمكن للمرأة أن تشارك في الصالح العام بالخدمة والفكر والإرشاد..

- يمكنها أن تشغل مركز العمل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الجماعات وفي الدولة.

ونحن نتفق مع علال الفاسي في دعوته هذه، ونقره عليها، لكن ليس في زمننا هذا بل في الزمن الذي كتب فيه النص، فالأستاذ ومتعلميه حينما يقرؤون هذا النص تعتريهم الدهشة، ويخيل إليهم أن الحقوق التي دعا علال الفاسي إلى تمتيع المرأة بها لم تتحقق بعد، وكأننا نعيش في أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، وأثناء تدريس هذا النص أحيانا ألمح علامات الاستغراب على وجوه المتعلمين، فأطلب منهم التمعن في مصدر

النص، وبالضبط في سنة النشر، وهنا تتبدد شكوكهم، حينما يعلمون أن علال الفاسي يتحدث عن وضعية المرأة في سنوات الستينات من القرن العشرين، وما أكثر الفروقات بين الأمس واليوم..

وهنا ينبغي أن نتساءل أيضا أليس الأولى الحديث عن وضعية المرأة في الألفية الثالثة التي يعيش فيها هؤلاء المتعلمين حتى يتاح لهم ربط هذه النصوص بواقعهم؟

التربية على الاختيار

"من لا رأي له، رأسه كمقبض الباب

يستطيع أن يديره كل من يشاء"

مما يؤسف له أسفا عميقا أن جلنا لم ينشأ على الاختيار، ولعل الارتباك الذي نشعر به حينما يعطى لنا الاختيار خير دليل على انعدام هذه الثقافة، بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك، ونقول إننا نعاني اعتلالا في الثقة بالنفس، يمكنك أن تجرب الأمر مع أقرب الناس إليك حينما تخيره بين شيئين او أكثر، غالبا ما يترك لك أنت الاختيار قائلا:

افعل ما شئت، أو اختر أنت

نتبرأ من الاختيار ونتنازل عنه للآخرين، ربما لأن ما يخيف الإنسان في الاختيار هو اضطراره لإعدام الخيارات الأخرى المطروحة أمامه، فعملية الاختيار لا تتم إلا بهذا الانتقاء الملزم، والواقع أن العملية ليست مرعبة لذلك الحد إذا ما اخترت الخيار الأقوى والمناسب لي، فلا بأس أن أطرح الاختيارات الأخرى جانبا، هذا أفضل من أن أفوض للآخر وأوكل له المهمة التي ينبغي علي القيام بها ،لذلك أحرص دائما كلما استدعى السياق على مناقشة هذا الأمر مع الناشئة من المقربين أو مع تلامذتي، أوصيهم بالتشبث في حقهم بالاختيار لأنه حق لا ينبغي التنازل عنه ولو تحت الإكراه، ينبغي أن نختار وقد نخطئ أو نصيب، فإن أخطأنا فسنكون قد اكتسبنا تجربة، والتجربة في النهاية ثمرة الاختيارات الخاطئة، وإن أصبنا كان في ذلك مبعث على الفخر، وجرعة إضافية نعزز بها الثقة في النفس .

ولقد أولى المنهاج التعليمي المغربي أهمية كبيرة للاختيار، بل إننا نجد أن من مداخل هذا المنهاج "مدخل التربية على الاختيار" وعُرِّف الاختيار فيه على أنه القدرة على التمييز واتخاذ القرار المتسم بالوعي، والتصرف السليم بناء على تفكير شخصي

وتأهيل خاص، فتأهيل المتعلم لاكتساب القدرة على الاختيار يتطلب تربيته على الاستقلالية، والوعي بالواجبات والحقوق الفردية والجماعية، والتحلي بروح المسؤولية، والقدرة على تدبير مشاريع شخصية أو جماعية ذات صلة بالحياة المدرسية والاجتماعية..

فهل نتربى حقا على الاستقلالية والتصرف السليم بناء على تفكير شخصي؟

تلاميذ الظل

في كل قسم لا بد وأن يضم مجموعة من المتعلمين الذين يمكن أن نطلق عليهم تلاميذ الظل، وهؤلاء درجات، منهم القدماء والمحدثون وما بين ذلك، وتلاميذ الظل هم أولئك المتعلمين الذين يختارون أماكنهم بعناية في القسم، خصوصا في الزوايا والطاولات الأخيرة، وغالبا ما يعرف بعضهم بعضا، ويشكلون ثنائيات يجمع بينها الرغبة في التواري والاختباء وتسجيل الحضور دون مشاركة أو تدخل أو إدلاء برأي، وأعجب ما في الأمر أنهم مسالمون، يميدون للعزلة والانطواء، ويزداد عدد هؤلاء كلما كان القسم مكتظا وفوق الحد، قلنا سابقا أن هؤلاء المتعلمين طبقات، فالطبقة الأولى هي التي عمرت طويلا في هذا الظل فنجد المتعلم مثلا قد استطاب العزلة منذ الابتدائي، أَلِف أن ينآى بنفسه عن الخوض في أي نقاش داخل القسم، منهم من لم يقف أمام السبورة منذ أن وطأت قدماه حجرات الدرس، ولا سبق له أن خطّ فيها حرفا، أما الطبقة الثانية فهي لمتعلمين ساقتهم الظروف للظل فاستطابوه، وكثيرا ما تكون هذه الظروف رفقة جديدة، أو بلوغهم سن المراهقة، أو اختبارهم لحادثة تركت فيهم أثرا، أو ما شابه ذلك من الأسباب، والطبقة الثالثة حديثة عهد بالظل ويتأرجحون بين الظهور والاختفاء كل حصة هم في حال..

جرت العادة بالنسبة إلي، أن أحصر هؤلاء، وأسعى لإشراكهم كلما وجدت لذلك سبيلا، أفلح مع بعضهم ويستعصي الأمر مع البعض الآخر، فلا يبقى أمامي إلا أن أستدعي بعضهم في نهاية الحصة وأنبههم إلى ما هم فيه، وكانت وجوههم تعبر عن دهشة كبيرة، وكأن أمرهم قد انكشف، أو أنهم لم يكونوا يتوقعون أن أحدثهم عن هذا، بل يخيل إلي أن بعضهم يرى في الأمر تطفلا ، لكن التطفل في هذه المواطن أمر محمود ومطلوب بشدة لذلك أقتحم عليهم عالمهم الخاص، الذي يحاولون تحصينه.

يفلح الأمر في أغلب الأوقات والجميل في الأمر أن تلك اللقاءات القصيرة في آخر الحصص، غالبا ما كانت تؤتي أكلها، وكانت تختتم بابتسامات عفوية ووعود بالتحرر من تلك الشرنقة، والسعي إلى الظهور والمشاركة بدل التواري والاختباء، قد لا تتحقق كل تلك الوعود، لكن ما يتحقق منها يثلج الصدر، وما تبقى نذكر بها لعل الذكرى تنفع أصحاب تلك الوعود..

الجنة في عقول الأمهات

الأم مدرسة. صدق حافظ في هذا الوصف بل أجاد وأبدع فيه.

ويقولون أيضا إن "وراء كل رجل عظيم امرأة" تنسب هذه العبارة "لنابليون بونابارت"، واختلف الناس في تفسير قصد الرجل منها، بين من يظن أنه قصد منها أن الرجل يكون في المقدمة والمرأة من ورائه، وبين معتقد أن المقصود من العبارة هو أن نابليون كان يرى نفسه رجلا وعظيما، وأراد أن يمدحه الناس بذلك، وثمة آخرون ينسبون هذه القولة "لأرسطو"، ومبررهم في ذلك أنه كان متزوجا من امرأة شرسة لا تهادن، كدرت صفو حياته، فما كان منه إلا أن زهد فيها، ولم تظهر موهبته إلا بعد أن فارقها..

لا يهمنا القائل لكننا نجد القول صائبا إلى أبعد حد، فوراء كل رجل عظيم امرأة، لكن غالبا ما تكون هذه المرأة هي أول امرأة في حياته، المرأة التي اغترب عن رحمها وألقمته ثديها وأرضعته لبنها، وشملته رعايتها وعطفها، ولنا وقفة عند بعض الرجال العظماء الذين كانت وراء نجابتهم أمهات عظيمات.

كان لثاني الأئمة الأربعة صاحب الموطأ "الإمام مالك" رحمه الله أم عظيمة تعي أهمية العلم وتقدره وتعظمه، وقد عظَّمت في عين ابنها دروس العلم منذ حداثة سنه، يقول مالك "نشأت وأنا غلام، فأعجبني الأخذ من المغنين، فقالت أمي: يا بني، إن المغنى إذا كان قبيح الوجه، لم يُلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلُب الفقه، فتركت المغنين وتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى"، لم يكن الإمام مالك قبيح الوجه لكن كان حسنه، إنما أرادت أمه أن تبغض إليه الغناء وتوجهه الوجهة الصحيحة.

ويروى أن هذه الأم الصالحة كانت تهتم بكل التفاصيل، وكانت لا ترسل فلذة كبدها لحلقات العلم إلا مهندما على أحسن وجه، توقيرا للعلم ولأهله ولمجلسه، "قال مطرف، قال مالك: قلت لأمي أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعال فالبس ثياب العلم. فألبستني ثيابًا مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي -يعني القلنسوة الطويلة- وعممتني فوقها. ثم

قالت: اذهب فاكتب الآن، وقال رحمه الله: كانت أمي تعممني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة"، كانت هذه الأم العظيمة حريصة على إرسال ابنها عند العلماء وعند الفقيه ربيعة ليأخذ عنه العلم، وهو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فقيه اشتهر بالرأي بين أهل المدينة، وعرف بربيعة الرأي، وكانت له أم عظيمة أيضا أنفقت كل المال الذي تركه زوجها لها في تعليمه وتربيته فشب وصار من كبار المحدثين..

وهذا الإمام سفيان الثوري يقول: لما أردتُ طلب العلم قلتُ: يا رب، لابد لي من معيشة، ورأيتُ العلم يضيع، فقلتُ: أفرغ نفسي في طلبه، وسألتُ الله الكفاية (أن يكفيه أمر الرزق)، فكان من كفاية الله له أن قيَّض له أمه، التي قالت له: يا بنيّ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي.

وكان للإمام أحمد أم تقية، وصابرة مات عنها زوجها وأحمد صغير، فربته وعلمته الكتاب والسنة، وكانت تحثه على طلب العلم، والذهاب إلى حلقات العلماء، فقد قال عنها الإمام أحمد رحمه الله: كانت توقظني قبل صلاة الفجر، فتُحمي لي الماء، ثم تخرج معي إلى المسجد خوفًا عليَّ؛ لأن المسجد كان بعيدًا عن داره، وكانت تنتظره خارجًا حتى يعود..

في كتاب "الشرارة قصة أم مع التربية والعبقرية و التوحد" نقرأ عن "كريستين_بارنيت" الأم التي قادت طفلها من التوحد إلى نوبل، فقد تجاهلت هذه الأم كلام الأطباء عن ابنها جيكوب فقد أخبروها أنه مصاب بمرض التوحد عندما كان في الثانية من عمره، وقالوا إنه لن يتمكن من الحديث طوال حياته، لكن المرأة لم تستسلم وانصاعت لغرائزها الخاصة كأم، فجربت واختبرت برامج تربية خاصة، وطرق علاجية تهدف لمعالجة حدود قدراته، وفي المدرسة زكى المدرسون كلام الأطباء وقالوا أنه لا يوجد أمل، لكن "بارنيت" تمردت وآمنت أن لابنها قدرات، فبدلًا من التركيز على حدود قدرات جيكوب، قامت بارنيت برعاية هواياته. حتى شب وشق طريقه في حقل الفيزياء النظرية.

تقول بارنيت عن ابنها: "كان يحب السلوكيات المتكررة، كان يلعب بالكوب وينظر إلى الضوء، ويقوم بعكس الضوء على الحائط لساعات متواصلة. وبدلًا من أخذه بعيدًا كنت أعطيه 50 كوبًا ممتلئة بالمياه على مستويات مختلفة وأجعله يستكشف.. كنت أحيطه بكل ما يحبه".

وتضيف: "كلما مارست هذا الأمر كلما ازداد نجاح الموضوع.. وفي إحدى الليالي تحدث جيكوب.. كان كالموسيقى لأن الجميع قالوا إن هذا أمر مستحيل الحدوث"

ومن منا لم يسمع بقصة والدة أديسون التي تسلمت رسالة فصل ابنها من المدرسة، وعندما قرأتها، قررت أن تحرف معنى الرسالة وهي تنظر لعيون ابنها المترقبة وقالت "ابنك عبقري، هذه المدرسة متواضعة جدا بالنسبة له.. من فضلك، علَّميه في المنزل"؛ لتظل البشرية مدينة لها حتى اليوم بفضل هذه الكذبة.

التعليم العمومي

كان بنو نمير من جمرات العرب المستغنين بقوتهم وعددهم عن طلب حلف، وكانوا يفتخرون بهذا الاسم ويمدون به أصواتهم إذا سئلوا، كان الرجل منهم يصعر خذه وهو يلفظ كلمة نمير إن سُئل عن موطنه افتخارا وزهوا، وظل الأمر هكذا حتى نشبت خصومة بين الشاعر النميري "عبيد بن حصين الراعي" وبين الشاعر "جرير"، فقد قيل إن "عبيد الراعي" كان يجاهر بأن الفرزدق أشعر من جرير، وأغضب ذلك جريرا، وطلب من "عبيد الراعي" أن يكف لسانه فلم يرعوِ، وما كان من جرير إلا أن هجاه بالبيت الشهير:

فغضَّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ومنذ ذلك اليوم سقطت قبيلة نمير، وخمل ذكرها بين الناس، وصاروا ينسبون أنفسهم لجدهم "عامر" عوض قولهم أنا من "نمير".

ما أشبه واقع المدرسة العمومية بهذه القصة، ففي العقود الماضية كان المنتسبون للمدرسة العمومية أشبه بقوم الشاعر النميري، كانوا يفتخرون بانتمائهم لهذه المدرسة، وكان الناس يقولون بزهو "أنا خريـج المدرسة العمومية"، ثم بدأت حملة الهجاء والتنقيص والتبخيس تلحق هذه المؤسسة حتى صار الكثير من المنتسبين إليها يخجلون من اقتران أسمائهم بها.

لكننا لن نكون مثل قوم "نمير" ولن نشيح بوجوهنا عن هذه المدرسة كما لن نفقد إيماننا بها، فما نزال نحمل مباعث الفخر والامتنان بأننا منتوج المدرسة العمومية، ومن رحمها ولدنا، وفي فصولها تعلمنا المعارف والقيم، وأفضالها علينا مما لا نحصي أو نعد، ولو شئنا إلى ذلك سبيلا، وفي هذه المدرسة تتلمذنا على يد كوكبة من خيرة الأساتذة الذين ندين لهم بدين لا سبيل لرده بتعبير "بشر بن المعتمر" رحمه الله.

إن ما يشيع بين الناس اليوم من أن المدرسة العمومية تحتضر، وأنها عقيمة وغير ذلك مما تردده الألسنة، وفي المقابل يمجدون التعليم الخصوصي ويعلون من شأنه، فهذا أمر لن نتفق عليه لأنه لا يصح، وكان ليكون مقبولا لو قيل أن التعليم بنوعيه في بلادنا يحتاج مزيدا من الإصلاح وإرادة قوية لإحداث ثورة في بنياته، أما تمجيد الخاص، وتحقير العمومي فأمر لا يستقيم، واسألوا أهل الاختصاص فهم أدرى أن تلك دعوى ما أنزل الله بها من سلطان، فهؤلاء حينما يطلقون هذه الأحكام يتناسون بغير وعي أو متعمدين أن أبواب المدرسة العمومية مشرعة لكل المتعلمين، ولا فرق بين محدود الذكاء وخارقه أو بين الغني والفقير أو المهذب والمستهتر، وأغلب المتعلمين من عامة الشعب، وينحدرون من أسر كادحة تسعى لكسب لقمة العيش نهارا، ويهد التعب أجسادها ليلا فلا تجد وقتا للتفكير والتخطيط، المتعلم الذي ينحدر من هذه الأسر قد يجيء إلى الحصة الصباحية وهو لم يصب فطورا، وإن أصابه فلا يتعدى كأس شاي وكسرة الخبز، ومنهم من يقدم من مناطق بعيدة كل يوم على دراجة أو ماشيا، صيفا وشتاء، ومنهم الحالمون ببذلة جديدة، وبحذاء جديد، وحينما يرون أترابهم يتنعمون في لذيذ العيش، ويتفاخرون بالهواتف والحواسيب وما جاور ذلك من مغريات الحياة، فماذا تنتظر أن يخلق في نفوسهم الصغيرة غير الشعور بالنقص، إن أقصى ما يرهق الطفل أو المراهق هو أن يشعر أن مخايل الفقر تلوح عليه..

أما عن آباء وأمهات هؤلاء فلا حرج عليهم ولا تثريب، فأغلبهم لا يعرفون المستويات التي بلغها أبناؤهم، همهم أن يبلغوا اللقمة لأفواههم الجائعة، يدركون أن العين بصيرة واليد قصيرة، لكنهم مفعمون بالأمل، يأملون خيرا في هؤلاء الأبناء، وينتظرون منهم أن يحققوا ما عجزوا هم عن تحقيقه، وانتظاراتهم مشروعة ومستحبة ومأمولة، فتحققها بالنسبة إليهم حظ من السعادة لا يصدق.

وفي الجانب الآخر المدرسة الخصوصية التي يعدد الناس محاسنها، ولسنا نعترض على صنيعهم هذا، لكننا نحب أن نشير لبعض الأمور ولو بإيجاز : إذا كانت أبواب المدرسة العمومية مشرعة فنحن نعلم جميعا أن هناك مدارس خاصة لا تقبل كل الوافدين عليها إلا بعد اختبار الولوج، فهم يختارون الأجود فالأجود لغاية في نفس يعقوب، وأغلب المتعلمين في هذه المدارس من الطبقات المتوسطة، أو من علية القوم يواكبهم أولياء أمورهم ويتتبعون مسارهم خطوة خطوة، فهؤلاء المتعلمين أغلبهم لم يذق طعم الحرمان، كل الأساسيات متوفرة، يأكلون ما لذ وطاب، ويلبسون ما اشتهت أنفسهم من الثياب، ما إن يتخطى عتبة الباب حتى يضع رجله في النقل المدرسي، فلا حر الشمس يلفحه ولا زمهرير البرد يعبث ببشرته، ولا يتلظون باكتظاظ..

أيستوي من توفرت له كل الظروف بمن يسعى ليوفرها.

أهمية التعبير

هل عشنا طفولة سوية ؟ وهل تعيشها ناشئة اليوم ؟ هل امتلكنا حق التعبير في كل مراحل حياتنا؟ هذه أسئلة مهمة جدا، طرحها وتأملها جدير بأن ينير زاوية معتمة من زوايا شخصياتنا، ولذلك فإني دائما ما أركز في التعاقد الديداكتيكي بيني وبين المتعلمين في كل المستويات على مناقشة مسألة التعبير، وتفصيل القول فيها، بل إنها أول بند نضعه في هذا التعاقد، ويتم التصديق عليه بعد أن نكون قد خلصنا إلى أننا بالفعل نعاني مشكلات في التعبير ورثناها من الأسرة والمجتمع، وأحيانا من المدرسة من غير قصد، إن الطفل منذ نشأته الأولى في أغلب الأسر يكون محروما من التعبير عن رأيه لا لشيء إلا لأنه لم يبلغ الحلم بعد، فرأيه مردود عليه، بل لا يستحق حتى أن يسمع، وفي أذهاننا مشاهد طفولية كثيرة وحوادث تعبر عن هذا الأمر، فحين يتجرأ الطفل ويجهر برأيه أمام الكبار إذا كان محظوظا قد يجابه رأيه بابتسامة تنم عن الاستهزاء، أما إذا أخطأه الحظ فقد يكون نصيبه نعلا يصيبه في وجهه أو ظهره وهو يهرب برأيه وجسده، يحدث هذا في حين كان ينبغي أن يشجع لجرأته على الإدلاء برأي أحيانا قد يكون فيه الكثير من الصواب، بل إن الصغار أحيانا يفاجئونك بآراء سديدة لم يمنَّ الله بها على بعض الكبار، فيوجد في النهر ما لا يوجد في البحر كما يقال، المشكلة عندنا هي أن الناس يقرنون الحكمة بالكِبر، وبالسداد في الرأي.

ولا يختلف الوضع في الشارع عن المنزل، إذ التسلط فيه سائد، والعدوانية سمة النفوس، فالكلمة الفصل لصاحب القوة، وللأسف أن أغلب مدننا وخاصة الصغيرة تفتقد لفضاءات تحتضن الأشكال الإبداعية كالمركبات الثقافية، بل إن هذه المركبات حتى وإن وجدت فهي كالأطلال والرسوم لا حياة فيها في أغلب الأوقات، أما الحديث عن التأطير في هذه المركبات فذو شجون..

وإذا كانت هذه هي الحال بالنسبة للأسرة والشارع، فإنه أحيانا لا تتاح الفرصة لكثير من الأطفال للتعبير بالشكل المطلوب عندما يلجون المدرسة للتعلم، إما لأنهم يكونون قد استطابوا الصمت وألفوا الاحتفاظ بآرائهم لأنفسهم (تلاميذ الظل)، وتزداد وضعيتهم تأزما حينما يجدون أنفسهم في فصول يخنقها الاكتظاظ الذي يغل يد الأستاذ ويحول بينه وبين إشراك الجميع أو استدراجهم للتعبير عن تمثلاتهم وأفكارهم..

المتعلمون الرقميون

قضينا طفولة تختلف عن طفولة اليوم كل الاختلاف، كنا ننفق اليوم بعد المدرسة نلعب ونرتع، وما إن نلمح حمرة الشفق حتى نطلق العنان لخطواتنا الصغيرة باتجاه الدور والمنازل لنصيب وجبة نسترد بها بعض الطاقة التي صرفناها في اللعب، كانت الأسر تتناول عشاءها في وقت مبكر، ثم يتجمعون حول الموقد أيام الشتاء في حلقة تواصلية نفتقدها اليوم كل الفقد، وفي أيام الصيف ما إن تغيب الشمس حتى تستقبل الأسطح الأجساد المنهكة، الأيدي فوق الصدور، والأعين تتملى النجوم وتخلق منها كل الصور، ودهشة من عظمة الخالق تنبهر لها الألباب، وفي خضم كل هذا كان أفراد الأسرة يتواصلون حتى يتلاعب النوم بأجفانهم واحدا واحدا فيسكتوا عن الكلام بعد أن قالوا كل شيء، وتخففوا من كل الأعباء، أما اليوم فتلاشى كل شيء، وأقيمت الحدود والمتاريس بين الناس، وارتحل الصغار والكبار من العالم الواقعي إلى واقع افتراضي توهموا أن فيه كل شيء، لكن الحقيقة هي أنه سرق منهم كل شيء، نحن الكبار مخضرمون إن صح هذا القول، فقد عشنا حياتين، حياة دون تكنولوجيا وحياة التكنولوجيا..

أما ناشئة اليوم فرقمية لأقصى حد، فالسواد الأعظم لا يفلت الهاتف من يده، ويصحبه أينما حل وارتحل، ويتصفحه في كل مكان، في أوقات الأكل، أثناء المراجعة، في المرحاض..، هو أول ما يفتح عليه عينيه وآخر ما يغمضهما عليه، إنه جيل نشأ على الأنترنت، إن ما يدفعنا لهذا الحديث هو انعكاسات هذا الهوس بالأنترنت على العملية التعليمية التعلمية، فالأساتذة اليوم يكادون يجمعون على أن هناك أزمة انتباه عند المتعلمين، ومرده الإفراط في التعرّض إلى وسائل التواصل والشاشات، فكثيرا ما تلمح في الفصل متعلما يجهد في دفع النوم دفعا شديدا عن مقلتيه، وهو ينظر إليك تشعر أنه جسد بلا روح، جسد متعب كلفه صاحبه أكثر مما يطيق، هذا في أحسن الأحوال، لأنه في أحيان كثيرة تجد من المتعلمين من لا يصمد، يتصنع الانتباه في بداية الحصة ثم لا

يلبث أن ينهار في لحظة من اللحظات، فتأخذه سنة من النوم مكرها لا مخيرا، بل ومنهم من يتجاوز السنة للنعاس العميق، وحينما تقبل على توبيخه لن تحتاج جهدا لتتبين من جفنيه أنه لم يذق طعم النوم، أو أنه أصاب منه حظا يسيرا لا يقيم الأود..

سيخبرك هذا المتعلم أنه أمضى الليل ساهرا رفقة هاتفه، وأسوأ ما في الأمر أن أغلبهم يشغلون هذه الهواتف في الظلام خشية تقريع الوالدين، أو تحت الأغطية التي تقيهم البرد، وأي مُقل تقدر على القراءة في كتاب، أو التركيز في مكتوب على السبورة وقد باتت مجهدة؟ كيف سيقرأ هذا المتعلم والكلمات تتراقص أمام عينيه؟

مشكلة التخصص

صار من الشائع اليوم القول إن التخصص جهل، وهذه العبارة حين نتأملها نخلص إلى أن فيها الكثير من الوجاهة والدقة، فنحن اليوم نشهد تخصصات متفرعة داخل التخصص الواحد، وهذا شيء محمود من جهة لأنه يتيح للباحث أن يحدد إشكالية بحثه ويضيق مجاله ليبلغ النتائج المرجوة، وهذا أمر لا خلاف فيه في البحث، لكن موضوع الخلاف أو الذي نراه كذلك هو حينما يعض الباحث بالنواجد على مجال واحد، ويغض الطرف عن البقية، بل يسقطها من الحسبان أحيانا وكأنها لا تعنيه، وإذا أخذنا اللغة العربية على سبيل المثال نجد المنتسبين لهذه الشعبة قد انقسموا إلى فرقتين، الأدب واللسانيات، فالسواد الأعظم من المنتسبين لمسلك الأدب قطعوا الصلة مع اللسانيات وزهدوا فيها كل الزهد، والمنتسبين للسانيات ترفعوا عن الأدب واعتبروه ترفا لا علما، بل ويعظم الخطر حينما تجد هؤلاء جميعا قد تخصصوا في مجالات محددة داخل تخصصاتهم وتنكروا لما لا يمت لمجال بحثهم بصلة، فالمنتمي لمسلك الأدب قد يتخصص في القديم وإن سألته عن الحديث يشيح لك بوجهه وكأنه شيء لا يعنيه، ومنهم من تخصص في الحديث واعتبر القديم متجاوزا ومضيعة للوقت، والأمر نفسه يصدق على اللسانيين، فمنهم من يعتبر نفسه توليديا ويضرب بكل المدارس الأخرى عرض الحائط، فيقصر جهوده على التوليدية فقط، ومنهم الوظيفي وغير ذلك، ومنهم من تبرأ من الحديث وخصص كل قراءاته لفقه اللغة القديم، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولسنا نجد هذا في اللغة العربية فحسب، بل حتى في التخصصات الأخرى، ففي التاريخ مثلا هناك المتخصصون في القديم وفي الحديث..، وفي الجغرافيا من يبرع في الإحصاء ومن تستهويه الخرائط..، وفي الإسلاميات المتخصصون في العقيدة والمتخصصون في علوم القرآن..

لسنا ندعي أن التخصص مثلبة بل مقصدنا مما كتبناه هو أن اهتمام وبحث الباحث في مجال محدد داخل تخصصه لا يعفيه من الاطلاع على المجالات الأخرى، وهذا شيء شهدناه، فقد من الله علينا بالتتلمذ على بعض الأساتذة الذين استطاعوا أن يفلحوا في هذا الأمر، فعلى سبيل المثال درسنا ديداكتيك التعبير والإنشاء على يد أحد الأساتذة الودودين الأخيار، وهو لساني حتى النخاع لكنه كان قارئا للأدب شغوفا به، وكنا نستمتع بالحصة ونحن نتناقش حول الكتابات الأدبية الخالدة، وكان قادرا على أن يناقش الطلبة في كل موضوع يطرح، وأن يدلي فيه بنصيب، وهذا لا يتأتى إلا بالاطلاع الواسع، لا القراءة الأحادية، وإلى جانب متعة النقاش كنا نصيب الفائدة من الدروس، فالطالب حينما يستمتع بالحصة تنفتح عنده شهية التحصيل ولا يصيبه فتور أو يقنع بقليل..

تأثير وتأثر

أخبرني أحد الأساتذة المتقاعدين عن زميل له درس المستوى الأول ابتدائي من سنة التعيين حتى التقاعد، وأنه لاحظ فيه شيئا عجيبا، وهو سرعة التأثر، وأنه إذا غضب لا يتنازل حتى تسترضيه، لقد درس هذا المعلم المستوى الأول ابتدائي لمدة تقارب الأربعين سنة..

ينتفي العجب إذا علمنا أن المعلم ينفق اليوم كله أو نصفه مع تلامذته، وإذا كانوا يتأثرون ويقتدون به، فإن المعلم لا يسلم هو أيضا من التأثر بتلامذته لكثرة مخالطته لهم، فالمعلم في السلك الابتدائي لابد أن يتأثر بالصبيان لأنه في أوقات اجتماعه بهم يتنازل عن شخصيته الواقعية ليكون أكثر قربا منهم، وكل تعال منفر، لا يتحقق معه الهدف المنشود من التعلم، ولا يتساوى طبعا من يدرس المستوى الأول مع باقي المستويات، إذ أنه أكثر المعلمين مطالبة بالتبسيط والانخراط في أنشطة متعلميه بعفوية منقطعة النظير، والمعلم في السلك الثانوي يتطبع ببعض طباع تلامذته المراهقين أيضا، ولا غرابة ولا حرج في ذلك ما دام الأساتذة أكثر الفئات المجتمعية معاصرة للأجيال وقربا منها، فهم في كل سنة يجايلون أجيالا جديدة فتية، ولا تقع الهوة بينهم وبين هذه الأجيال مهما تقدموا في العمر، و للجاحظ نوادر كثيرة في هذا الباب في رسالته عن المعلمين..

الأميران والمعلم

اتخذ الخليفة المأمون اللغوي الكبير "أبا زكريا الفراء" معلم نحو لولديه، وفي يوم أراد الفراء أن يقوم من مجلسه إلى بعض حوائجه فتسابق الأميران إلى نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً إلى معلمه فقدماها.. رفع الخبر إلى المأمون فاستدعاه، ولما دخل عليه قال له: يا فراء من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين قال: بلى، إن أعز الناس من إذا نهض من مجلسه تقاتل وليا عهد المسلمين على تقديم نعليه حتى رضي كل منهما أن يقدم له فرداً. فظن الفراء أن ذلك أغضب الخليفة فاعتذر بأنه حاول منعهما فأبيا.

فقال المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلاه من شرفهما بل رفع من قدرهما وبين جوهرهما فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم.

عقل الرجل تحت لسانه

دائما ما أستحضر هذا القول مع تلامذتي، وأنصحهم أن يتعلموا فنون القول، وأن يحسبوا لألفاظهم ألف حساب، وأن لا يقاطعوا متحدثا، أو يبخسوا قولا دون حق، وأن يمرنوا أنفسهم على ضبط إيقاعاتهم في الكلام ضبط الشاعر القديم لقصيدته، فثمة مواطن يحسن فيها السكوت، ومواضع يستحب فيها المشاركة بقول دون إطناب، لأن الإطناب مذموم في كثير من المواطن، ولا يجلب على صاحبه إلا النفور أو الازدراء من مستمعيه..

وكثيرا ما يسألني أحدهم عن السبيل لكل هذا، فكان جوابي جملة واحدة لا غير :

- اقرأ كثيرا، ففي القراءة نستمع أكثر مما نتحدث، ولن ينطق لسانك بالمعرفة والحكمة وعقلك في منتهى الفراغ..

التربية النفعية

"إن المخاوف العظيمة التي أظلم بها عقل الباطن للجنس البشري وجرت في أذيالها القسوة والظلم والحرب، أصبح من المستطاع تخفيفها إلى حد يفقدها أهميتها. وكل هذا عظمت قيمته للحياة البشرية عظما لا نجرؤ معه أن نعارض التربية التي من شأنها تحقيقه. ولا مناص من أن تكون العلوم التطبيقية العنصر الأساسي في مثل هذه التربية، فبدون الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس لا نستطيع بناء العالم الجديد، لكننا نستطيع بناءه بدون اللاتينية واليونانية، وبدون دانتي وشكسبير، وبدون باخ وموزارت، تلك هي الحجة العظمى للتربية النفعية"

"برتراند راسل" من كتاب في التربية

تلك الحجة التي ذكرها "راسل" تحولت عندنا إلى مسألة لا تقبل النقاش، وسرت في الأدمغة والنفوس، باستحكام منقطع النظير، فنحن نشهد اليوم في نظامنا التعليمي عضا بالنواجد على التربية النفعية، وزهدا في الآداب والعلوم الإنسانية، فالمجتمع يمجد الشعب العلمية ويقرنها بالتفوق والذكاء، وما دونها عندهم فضلة لا عمدة بلغة النحويين، والآباء والأمهات بعدما سلموا بهذا الأمر طفقوا يبذلون كل الجهود في توجيه أبنائهم نحو الشعب العلمية، ومنهم من يكره أبناءه على الانتساب لهذه الشعب على مضض، وهذا شيء رأيناه ونراه كل موسم دراسي، وسنظل نراه ما لم تتغير تلك القناعات المتحجرة، فبعض المتعلمين في الجذع المشترك مثلا، يلتحقون بفصولهم مضطربي النفوس قد دبَّ إليهم السأم والملل، وتزداد حالتهم حرجا بعد نتائج الأسدس الأول، حينما يُلفون أنفسهم قد عجزوا عن مواكبة زملائهم في إيقاع التعلمات، وأحيانا يوفقني الله إلى التفطن لبعض هذه النفوس المعذبة التي فرض عليها تخصص لا تهواه، ومن خلال المحادثات التي تجمعني بهم أكتشف أنهم كانوا ضحية توجيه خاطئ، إما من

زملائهم أو من أولياء أمورهم، وذات يوم في حديث جمعني مع أحد المتعلمين أسر لي أنه غير قادر على المواكبة في شعبة العلوم، فأشرت إليه أن يعيد التوجيه لشعبة الآداب، سكت برهة ثم أفصح لي على أن والده يرفض الأمر، ويصر على استكماله المشوار، وأن والده مصر على أن يقتدي بأخيه الذي يدرس الهندسة، وبعد لأي وُفقنا إلى أن نقنع هذا الأب بأن يسمح لابنه بالاختيار، واستطاع إعادة التوجيه وصار بخطى ثابتة في تخصصه الجديد..

الأستاذ هو الأسلوب

يبدأ الأستاذ مسيرته المهنية مقلدا، هذا قدره، يقلد أساتذة تتلمذ على أيديهم أو أساتذة يعرفهم، يقلدهم بدرجات متفاوتة، يقلدهم في لغتهم، في حركاتهم وسكناتهم، وحتى في تدبيرهم للتعلمات..، ويحدث أن يتأثر ببعضهم تأثرا شديدا، أو أن يأخذ منهم النزر اليسير، ومع تمرسه يظل يتخفف شيئا فشيئا من عباءة التقليد ناسجا عباءته الخاصة، إلى أن يحل اليوم الذي يستقيم له أسلوبه الخاص، وبأسلوبه هذا يتميز..

القيم خالدة والمعارف يطالها النسيان

إن القيم هي الإنسان فبدونها ينحط انحطاطا شديدا حتى يتساوى مع الحيوان أو يكون أسوأ منه، والمدرسة فضاء للقيم ومشتل لها، فالطفل حينما يلتحق بالمدرسة يكون قد تلقى نصيبا من القيم في وسطه الأسري، والمدرسة تكسب المتعلم ما ينقصه من هذه القيم وتصحح تمثلاته، وترتقي به ليكون مواطنا صالحا، ولا عجب أن نجد أن من مداخل المنهاج التربوي المغربي مدخلا هو مدخل التربية على القيم.

المعارف التي تلقيناها منذ التحاقنا بالمدرسة أغلبها طالها النسيان، قد تسأل إنسانا أنهى تعليمه عن قاعدة لغوية، أو معادلة رياضية أو ما شابه ذلك، فلا تسعفه الذاكرة في الاسترجاع، أما القيم فمقاومة للنسيان، وتظهر في تصرفات الناس ومعاملاتهم..

الجد والهزل

"إن الإفراط في جدية القول يجلب الملل، والإفراط في الهزل يجلب الاحتقار"

"امبرتو ايكو"

كلام صاحب "اسم الوردة" نجد له تجسيدا في ميدان التعليم، خصوصا عند الأستاذ، فهو أكثر الناس المعنيين بهذا الأمر، لتواصله المباشر مع الناشئة، فهو إن اقتصر على الجدية في القول ونقل المعارف الحصة بأكملها دون أن يتخلل ذلك لحظات تكسر الرتابة وتخفف عياء التلقي كان في هذا مجلبة للملل، وإن أنفق زمن الحصة كله في الهزل سقطت هيبته وانفتل حبل الضبط من يده وعم التراخي النفوس، إنما على الأستاذ أن يلتزم جدية القول ويعرف بحذق كيف يتخفف منها حينما يرى المتعلمين قد شرعوا يفقدون تركيزهم، فمن شأن دقيقة هزل أن تعيد حفز الهمم وتيقُظ الحواس لمتابعة ما تبقى من جدية القول..

التوجيه

"ينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولا طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك "

"ابن سينا"

من يوجه التلاميذ في مدارسنا؟ هذا سؤال في غاية الأهمية لأن حياة التلميذ ومستقبله الدراسي تقف عليه، صحيح أن في مؤسساتنا التعليمية أطرا للتوجيه، لكن هل يكفي هؤلاء لمواكبة كل المتعلمين؟ كلا، لأن أغلب المؤسسات تتوفر على موجه واحد ويشق عليه أن يستمع لكل تلميذ، وأن يزن طبعه ويسبر قريحته ويوجهه الوجهة التي يمكن أن يجيد فيها ويبدع، وفي مثل هذا الوضع ينبغي للآباء أن يحملوا على عاتقهم هذه المهمة وأن يختاروا لأبنائهم التوجه المناسب بعد اختبارهم ومناقشتهم في ميولاتهم الدراسية. ترسل المؤسسات التعليمية ورقة التوجيه للآباء ليوقعوها وبالفعل توقع هذه الورقة، لكن الذي يوقعها في غالب الأحيان هو التلميذ لا وليه، وحتى إذا اتبع هذا التلميذ المسطرة كما هي وأعطى الورقة لوِليّه ليوقعها فإن أغلب الأولياء يوقعون دون أن يسألوا عن فحوى الورقة، أو يناقشون أولادهم في أسباب اختيار شعبة دون الأخرى، خصوصا إن لم يكن لهم حظ من التعليم، وأغلب آبائنا وأمهاتنا على هذه الحال.

الرفقة

حديث أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : "الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل" رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح.

قال ﷺ : "مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير." رواه البخاري ومسلم.

الصاحب ساحب، إما أن يسحبك لما فيه خير وصلاح إن كان من أهلهما، أو يسحبك للسوء والعبث، إن كان غارقا فيهما، هذا أمر يعرفه القاصي والداني، وتثبته التجربة في كل حين، وتظهر خطورته أكثر في المدارس والفصول الدراسية، ففي بداية كل موسم دراسي، يأخذ المتعلمون في تشكيل التحالفات وتتصل أسباب الصداقة فيما بينهم، وغالبا ما يكون لهذه الصداقات شأن خطير لأنها مما يرفع المتعلم أو يهوي به للدرك الأسفل من التهاون والكسل، فالصداقات التي ترفع المتعلم هي حين تنشأ علاقة صداقة بين متعلم نبيه ومتعلم متوسط أو من المتعثرين، وما يلبث هذا المتوسط أو المتعثر أن تحفز هذه الرفقة همته، ويعقد العزم على الاقتداء بهذا الصديق، فتراهما في حصص تصحيح الفروض خاصة، يحسبون المعدل ويعيدون الحساب، لعلهم يستزيدون ليلحقوا ما استطاعوا سبيلا بخلانهم المتفوقين، أو على الأقل لتقترب معدلاتهم من معدلاتهم ولو قليلا، أما عن تدوين الدروس فيحرصون عليها كل الحرص، بل يجتهدون حتى في الاعتناء بدفاترهم تشبها بأصدقائهم الذين يشاركونهم الطاولة، أما الكتاب المدرسي فإن استثقلوا إحضاره فينوب عنهم خلانهم، ولا ريب أن الفوائد التي يصيبها المتعثرون والمتوسطون من مرافقة النبهاء عظيمة جدا.

ذاك صنف محمود من الصداقات، إلا أن هناك صنفا آخر عقيما لا ينتج فائدة، وهو حينما تنشأ صداقة بين متعثرين، فلا يحفز أحدهما الآخر، ولا يجدان ما يتنافسان عليه غير المُلهيات، يحدث أن يغيب الكتاب المدرسي على طاولتهما، وإذا استفسرتهما

يشرعان في تبادل التهم فيما بينهما، وإذا تفحصت الدفتر تجد فيه دروسا مبتورة ومن كل المواد، فالدفاتر نفسها قد تعمر في المحفظة لأسابيع، ويحدث أن تنشأ علاقة بين متوسط في المستوى وبين متعثر، فيسحب الثاني الأول ليلحق به، وهذا يحدث كثيرا

ولقد اعتدت أن أصنف المتعلمين دائما، وبناء على ذلك التصنيف تكون المؤاخاة بينهم، وحتى المقاعد لا ينبغي أن يشعر المتعلم أنها في اسمه، أو ملكية خاصة به، ، لأنه من المستحسن أحيانا أن تأتي بمن هم في آخر الصف إلى أوله ففي هذا خلخلة كبيرة ويقظة مرجوة..

الأنشطة المدرسية

قد لا نتذكر كل المعارف التي تلقيناها في سلك من الأسلاك الدراسية، لكننا لا ننسى نشاطا مدرسيا أسهمنا فيه حتى وإن بلغنا من الكبر عتيا، هذه الأنشطة تترك أثرا عظيما في نفسية المتعلم وشخصيته، فهي نافذته على الإبداع، وسبيله إلى صقل شخصيته بعيدا عن المقررات، والملاحظ أن المتعلمين الذين ينخرطون في الأندية المدرسية ويشاركون في نشاطاتها يتزايد عندهم حس المسؤولية ويشعرون بنضج أكبر، خصوصا عندما تسند لهم مسؤولية من المسؤوليات.

حينما كنا في الثالثة إعدادي اهتدى أستاذ مادة الاجتماعيات إلى تنظيم معرض للقطع التاريخية فقسم بيننا المهام ودفعنا إلى أن نأخذ الأمر على محمل الجد، كثفنا التنسيق بيننا، وانقسمنا إلى لجان، أخذت كل لجنة على عاتقها إنجاز مهمة من المهام، واستطعنا أن نقيم معرضا ناجحا نوه به الجميع، فقد ضم المعرض قطعا أثرية مختلفة (قطع نقدية قديمة، أدوات فلاحية بدائية، آلات معدنية عفا عنها الدهر..)، وقبل أن ينبهر الزائر بالمعروضات والتنظيم المحكم لا ريب أنه تساءل كيف جيء بكل هذه الأدوات إلى هنا، الجواب يكمن في أن المتعلمين استشعروا ثقل المسؤولية التي شُرفوا بها، فهان عليهم كل شيء، وإلا كيف نفسر أن تلميذا في الإعدادي حمل محراثا حديديا أو رحى حجرية لكيلومترات على دراجته الهوائية ليشارك بها في المعرض، هؤلاء الصغار كانت تباشير الفرحة على وجوههم وهم يشرحون للزائرين طرق اشتغال هذه القطع، وذاك أمر ينسيهم كل جهد ونصب في سبيل إقامة النشاط، هذا فيض من غيض، فإلى جانب هذا أقيمت أنشطة راسخة في ذاكرتنا كمتعلمين، منها مسابقات في القصة والمسرح، والندوات التحسيسية، التي كان المتعلمون يصيبون منها فائدة، وترافقها بعض الطرائف أحيانا، فذات يوم في يوم تحسيسي حول أخطار التدخين، اعتلى المنصة تلميذ ممن أدمنوا شرب الدخان وانفلتوا من شراكه قبل أن يصيروا عبيدا لهذه العادة،

ألقى كلمة موفقة حول تجربته، وصور لنا خلاصه من تلك العادة بتأثر كبير، لكنه انزلق منزلقا خطيرا في ختام كلمته، إذ قال مخاطبا المتعلمين:

باعتباري من قدماء المدخنين أنصح زملائي المتعلمين أن يخوضوا هذه التجربة لكن شريطة أن يقلعوا عنه بعد حين، هنا وثب أحد الأساتذة وانتزع منه مكبر الصوت، ثم اختلى به للحظات، فأعاده للمنصة ليصحح قوله، وينصح بأن حتى التجربة مذمومة لأنها أولى خطوات الإدمان، وكنا نَتنَدرُ بهذه الحادثة لزمن طويل وما نزال..

كان الأساتذة رفقة متعلميهم يبنون خشبة عظيمة في ساحة المؤسسة تعرض عليها مسرحيات فريدة من أداء المتعلمين تحت إشراف الأساتذة، وكنا ننتظر يوم السبت هذا على أحر من الجمر، ففيه نتحرر من كل شيء، فنصيب متعة المشاهدة إذا كنا من الجمهور، أو تضاعف لنا المتعة إن اعتلينا الخشبة.

إن ما يقام من أنشطة داخل المؤسسات هو نتيجة تضحيات كبيرة يبذلها الأساتذة والأستاذات، على حساب أوقات فراغهم، ولا ريب أنهم يصنعون هذا الصنيع مطمئنين مؤمنين بالنفع الذي يمكن أن تعود به هذه الأنشطة على المتعلمين، وبرا منهم بالمدرسة العمومية لأنهم أبناؤها، وأضعف الإيمان أن يلقى هؤلاء الأساتذة نوعا من التحفيز والتقدير على مجهوداتهم، فكم من أستاذ نفض يديه من كل مبادرة لكثير من الأسباب عوض أن يشجع ليبدع أكثر..

الفهرس

مقـدمــة : 6
"وحكمتَ على المجتهدين بتفريط المقصرين" 8
سي نجاح 10
طالب صالح يدعو لك 12
الألماني 14
قصص الإبراشي 16
إملاق 19
الإعداد القبلي 22
التربية بالحكاية 25
القدوة 27
التربية الأخلاقية 29
"جرجانية حتى النخاع" 32
إن من البيان لسحرا 34
إن المعلمَ لا يعيشُ طويلا 36
الحفظ 38
عتيقة 41
التأديب 43
بين الخوف والاحترام 45

زهور الحياة 47
كلمة طيبة 49
المكتبة 51
القراءة 53
نصوص متجاوزة 55
التربية على الاختيار 58
تلاميذ الظل 60
الجنة في عقول الأمهات 62
التعليم العمومي 65
أهمية التعبير 68
المتعلمون الرقميون 70
مشكلة التخصص 72
تأثير وتأثر 74
الأميران والمعلم 75
عقل الرجل تحت لسانه 76
التربية النفعية 77
الأستاذ هو الأسلوب 79
القيم خالدة والمعارف يطالها النسيان 80
الجد والهزل 81
التوجيه 82

الرفقة 83

الأنشطة المدرسية 85

إذا كان المعلم أبا ثانيا لطلابه يحبهم حبه لأبنائه ويعطف عليهم عطفه على فلذات أكباده، ويحرص على أن يبلغوا العلا زارعا فيهم كل ما بين يديه من قيم حميدة، فإنهم يتخذونه أبا ثانيا يوقرونه توقيرهم لآبائهم، ويقتدون به أحيانا أكثر من اقتدائهم بآبائهم، ولا ريب سيأتي يوم يدعون له في السر والعلن كما يدعون لآبائهم.

قد تموت وليس لك ولد صالح من صلبك يدعو لك، لكن قد يمن عليك الله بطالب صالح يدعو لك، أو قل طلابا كثرا يدعون لك بعد أن تركت فيهم أثرا طيبا...